بحث رقم ٤

المفسر والنص القرآني
التفسير العلمي أنموذجاً

د. علي أسعد*

مقدمة:

أضحى علم التفسير في العصر الحديث كلأً مباحاً يرتاده كل من يريد، دون اعتبار لتخصص علمي أو إيمانٍ بوحي إلهي، بغية تحديث، أو تجديد، أو إصلاح لأحوال المسلمين، إما لبعث نهضتهم، أو لتجاوز تخلفهم، أو لإلغاء مرجعيتهم القرآنية بقالب من المناهج والاتجاهات المتنوعة، بل والمتضادة أحياناً، لاختلاف المنطلقات والأدوات والغايات، الدافع إلى ذلك هو الاتفاق على محورية القرآن الكريم في حياة المسلمين ودوره كمرجعية أولى؛ إذ نتجت عن هذه القراءات أزمة تفسيرية معرفية، سواء بمضمونها أم بآثارها.

فالقرآن الكريم - من خلال بعض الاتجاهات - أصبح كالمادة الهلامية يشكلها قارئه كما يريد-، فحمّلت آياته ما لا تحتمل -، مما أدى إلى ابتعاد علم التفسير عن المنهجية العلمية الموضوعية بسبب التطبيقات السلبية -.

من الباعث على بعض هذه الاتجاهات: ما حدث عندما التقى المسلمون بالغرب وحضارتهم، إذ شعروا بتخلفهم عنه، فأخذ المصلحون يبحثون عن سبب تخلف المسلمين وتفوق الغرب، والسُبل الكفيلة لنهضة المسلمين، فبدا لهم أن أحد هذه السُبل هو تعلم العلوم الحديثة التي تفوق بها الغرب، ولكن كيف يمكن حث المسلمين على تعلم هذه العلوم القادمة من الغرب المغاير لديننا؟.

* كلية الشريعة، قسم علوم القرآن والسنة بدمشق.

انطلق المصلحون من أن القرآن الكريم هو المرجع الرئيسي للمسلمين، لذا كان لا بد أن تكون نقطة البداية منه، فكانت الدعوة إلى التوفيق بين القرآن والعلوم الحديثة، للدلالة على أنها ليست غريبة عن حضارة المسلمين، بل إن القرآن قد دعا إليها وأشار إلى آخر المكتشفات العلمية. هذا على الصعيد الفكري.

أما على الصعيد العملي فقد اتصل المسلمون بالغرب سواء أكان ذلك برضاهم أم لا، وتأثروا بعلومه ومعارفه، لكن رغم هذا الانفتاح على الغرب لم يفقد القرآن الكريم مرجعيته، وإنما على العكس زادت الدراسات القرآنية المختلفة في توجهاتها، حيث كانت تطرح تساؤلات عدة من بينها: كيف ينبغي فهم النص القرآني في هذا العصر ليكون دافعاً إلى نهضة المسلمين؟.

في هذا الإطار يمكن أن نصوغ التساؤل المحوري لهذه الدراسة بالآتي:

كيف تعامل المفسر مع النص القرآني على ضوء العلوم الحديثة؟ هل استطاع التوفيق بينها وبين القرآن الكريم؟ وما هو أثر ثقافة المفسر على تفسيره؟ وهل كان هناك تفسير علمي تدل عليه الآيات دون أي تحميل لها؟.

تبرز أهمية هذه التساؤلات في أنها تحاول الكشف عن كيفية تعامل المفسر العلمي مع القرآن الكريم. وهل أمكن إيجاد تفسير يبدأ بالقرآن الكريم ليكون محركاً ودافعاً لنهضة المسلمين أم أنه كان تابعاً لأفكار المفسر المسبقة؟.

المبحث الأول: التفسير العلمي بين المؤيدين والمعارضين:

يمكن التمييز بين نوعين من التعاريف للتفسير العلمي: الأولى منها تُظهر التفسير العلمي، تفسيراً متكلفاً، لا تدل عليه الآيات، وإنما تُربَط قسراً بالعلوم الحديثة.

والنوع الثاني من هذه التعاريف، يدل على أن هناك صلة بين الآيات، وبين العلوم التجريبية، ومهمة المفسر هي كشف هذه الصلة، لكي تظهر أسبقية القرآن الكريم في الإشارة إلى هذه العلوم، ومن ثمّ الاستدلال بهذه الأسبقية على أنه كلام الله عزّ و جلّ.

من أمثلة النوع الأول تعريفه بأنه "تحكيم مصطلحات العلوم في فهم الآية، والربط بين الآيات الكريمة، ومكتشفات العلوم التجريبية والفلكية والفلسفية"[1].

---

[1] محمد الصباغ، **لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير**، المكتب الإسلامي، د.ط، بيروت / دمشق، ١٩٧٣م، ص٢٠٣.

وعُرف أيضاً بأنه "التفسير الذي يتوخَّى أصحابه إخضاع عبارات القرآن، للنظريات والاصطلاحات العلمية، وبذل أقصى الجهد في استخراج مختلف مسائل العلوم والآراء الفلسفية منها"[1].

أما النوع الثاني من التعاريف: فمنها من حاول الجمع بين النوع الخاطئ للتفسير العلمي – إذ حمل التعاريف السابقة على الخاطئ منها – وبين النوع الصحيح، حيث عُرِّف أنه "تفسير الآيات الكونية الواردة في القرآن على ضوء معطيات العلم الحديث، بغض النظر عن صوابه وخطئه"[2].

يلاحظ على هذا التعريف، قصره التفسير العلمي على الآيات الكونية، و في واقع الأمر هو متعلق بمجموع آيات القرآن الكريم[3].

[1] عبد المجيد عبد السلام المحتسب، **اتجاهات التفسير في العصر الرَّاهن**، دار البيارق، ط٣، عمان الأردن، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٢٤٧. يبدو من هذين التعريفين أن التفسير العلمي غير منحصر في العلوم التجريبية، بل تدخل فيه الآراء الفلسفية، وفي هذا خروج عن قيد ارتباط التفسير العلمي بالعلوم التجريبية، بالإضافة إلى اعتبار أن ما يبذله المفسر من جهد في هذا التفسير فيه إخضاع لألفاظ القرآن الكريم، لكي تناسب مصطلحات العلوم، وفي هذا إيحاء بأن الآية المراد تفسيرها، لها معنى مخالف للمعنى العلمي، الذي يُستدل بها عليه، وكأن ذلك وصف لبعض التفاسير التي ينطبق عليها هذان التعريفان منها تفسير جواهر القرآن لطنطاوي جوهري. وانظر: محمد حسين الذهبي، **التفسير والمفسرون**، دار القلم، ط١، بيروت، د.ت، ج١/٥١٩. وانظر: أمين الخولي، **التفسير: نشأته – تدرجه – تطوره**، دائرة المعارف الإسلامية، عدد٧، ١٩٨٢م، ص٤٩.

[2] عبد الله بن عبد الله الأهدل، **التفسير العلمي للقرآن الكريم**، بحث ماجستير، نسخة مسحوبة على الأستنسل، ص١٥. نقلاً عن فهد الرومي، **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**، مؤسسة الرسالة، ط١، د. م. ط، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص٥٤٩. لعدم استطاعتي الحصول عليه.

[3] أما الآيات التي يمكن أن تفسر علمياً: فقد كان التفسير العلمي في البداية أكثر ارتباطاً بالآيات الكونية من غيرها، وذلك بسبب إشارتها الصريحة إلى الطبيعة والإنسان كمادة، ولأن مجال العلم التجريبي في بداياته وكشوفاته كان مع العلوم الطبيعية كما ذُكر أنفاً، ومن ثمّ صار التفسير العلمي مرتبطاً بكل ما يمكن أن يفسر علمياً من آي القرآن الكريم، من آيات كونية (انظر في تفسير الآيات الكونية: حنفي أحمد ، **التفسير العلميّ للآيات الكونية في القرآن الكريم**، دار المعارف بمصر، د.ط، القاهرة، د.ت)، أو آيات الأحكام (انظر في آيات الأحكام: عبد الحميد دياب، أحمد قرقوز، **مع الطب في القرآن الكريم**، مؤسسة علوم القرآن، ط٢، دمشق، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص١٣٣ وما بعدها) ببيان الحكمة العلمية من تحريم شيءٍ أو تحليله، كربطها بمضاره أو فوائده الصحية، أو آيات العقيدة (انظر: أحمد مصطفى المراغي، **تفسير المراغي**، دار إحياء التراث العربي، د.ط، بيروت، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م ج٨/٣٩، ج١٣/٧٧) كتقريب مسائلها إلى الأذهان بنتائج العلوم التجريبية، أو آيات القصص القرآني (انظر: محمد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، مؤسسة الأعلمي، ط٣، بيروت، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، م١٥/٢٧٠. ــ موريس بوكاي، **القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم** (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)، دار المعارف، ط٤، القاهرة، ١٩٧٧م، ص٢٤٩ وما بعدها)، كالاستدلال على وقائع قصة ما، باكتشافات أثرية من علم الآثار.

في حين نجد فهد الرومي[1] يحصره بالمقبول فيركز في تعريفه على ضرورة الصلة بين الآية والعلم وعلى الهدف من هذا النوع من التفسير حيث يقول هو: "اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم الكونية ومكتشفات العلم التجريبي على وجه يظهر به إعجاز للقرآن يدل على مصدره، و صلاحيته لكل زمان ومكان"[2]، وذكر الصلة في تعريفه "ليشمل ما هو تفسير وما هو من قبيله كالاستئناس بالآية في قضية من قضاياها"[3].

الملاحظ في هذا التعريف، أنه لا يحصر الصلة بين الآية ومكتشفات العلم التجريبي بدلالة اللفظ، إنما يكفي مجرد الاستئناس بهذه العلوم في قضية من قضايا الآية، حتى يطلق على هذا مصطلح التفسير العلمي.

وأما أحمد عمر أبو حجر[4] لم يحصر التفسير العلمي بالآيات الكونية، وإنما جعله عاماً يشمل عبارات القرآن كلها، حيث عرفه بأنه "التفسير الذي يحاول فيه المفسر فهم عبارات القرآن في ضوء ما أثبته العلم، والكشف عن سر من أسرار إعجازه، من حيث أنه تضمن هذه المعلومات العلمية الدقيقة التي لم يكن يعرفها البشر وقت نزول القرآن، فدل ذلك على أنه ليس من كلام البشر، ولكنه من عند الله خالق القوى والقدر"[5]. يشرط صاحب هذا التعريف أن يكون العلم ثابتاً، ليتحقق المقصد والهدف من التفسير العلمي، وهو إثبات الإعجاز العلمي للقرآن.

بينما نجد أن تفريق عبد المجيد الزنداني بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي أوضح؛ إذ يعرف التفسير العلمي بأنه: "هو الكشف عن معاني الآية أو الحديث في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية. أما الإعجاز العلمي: فهو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي أخيراً وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ. وهكذا يظهر اشتمال القرآن أو الحديث على الحقيقة الكونية التي يؤول (يصير وينتهي) إليها معنى الآية أو الحديث ويشاهد الناس مصداقها في الكون فيستقر عندها التفسير ويعلم بها التأويل كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الانعام : ٦٧] وقد

---

[1] فهد الرومي معاصر مختص بالعلوم الشرعية له **كتاب اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**، م.س، وهو في الأصل رسالة دكتوراه، وكتاب منهج المدرسة العقلية في التفسير، مؤسسة الرسالة، ط٢، د.م.ط، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

[2] ن.م، ص٥٥٠.

[3] ن.م، ن.ص.

[4] مختص بالعلوم الشرعية، له كتاب التفسير العلمي في الميزان، وهو في الأصل رسالة دكتوراه.

[5] أحمد عمر أبو حجر، التفسير العلمي للقرآن في الميزان، دار قتيبة، ط١، بيروت/دمشق، ١٩٩١م/١٤١١هـ، ص٦٦.

تتجلى مشاهد أخرى كونية عبر القرون، تزيد المعنى المستقر وضوحاً وعمقاً وشمولاً لأن الرسول ﷺ قد أوتي جوامع الكلم، فيزداد بها الإعجاز عمقاً وشمولاً، كما تزداد السنة الكونية وضوحا بكثرة شواهدها المندرجة تحت حكمها"[1].

يُلاحظ على هذا التعريف ، أنه رغم حرصه على فصل التفسير العلمي عن الإعجاز العلمي، فإن هذا الأخير، يدخل ضمن التفسير العلمي ولو لم يصرح به، وذلك لأن تعريف التفسير العلمي سابق الذكر، جاء مطلقاً غير مقيد بمعرفة أهل عصر الوحي، أو عدم معرفتهم؛ أي أنه شامل لهذين الاحتمالين، لذلك يمكن اعتبار الإعجاز العلمي جزءاً من التفسير العلمي[2].

التعاريف السابقة تعكس مواقف المفسرين والباحثين من التفسير العلمي وصوره ، لذلك لابد من بيان هذه المواقف و تحليلها.

المطلب الأول: تصنيف المؤيدين:

إن هناك فروقاً بين المؤيدين ترجع إلى اعتبارات مختلفة، فقد يرجع التفاوت إلى درجة الثقافة العلمية، أو إلى إفراط البعض، أو إلى تبني نوعاً دون آخر من صور التفسير العلمي.

أولاً: المؤيدون وصور التفسير العلمي:

إن التفسير العلمي يشمل صوراً أو أشكالاً متنوعة بداية من دفع التعارض الظاهري بين القرآن والعلم، مروراً بالإسهاب العلمي خدمة لمقصد الآية، إلى إظهار سبق قرآني في مجال العلوم لإثبات أن القرآن موحى به من عند الله عز وجل.

---

[1] **مجلة الإعجاز**، عدد ١، صفر ١٤١٦هـ- يوليو ١٩٩٥م. كذلك نجد وهبة الزحيلي يميز بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي، حيث يعرف الأخير بأنه: "هو الكشف عن معاني الآية في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية، أي أنه يأتي متأخراً عن اكتشاف النظرية العلمية"، فإذا ثبت عدم إدراك هذه الحقيقة بالوسائل البشرية في زمن الوحي، وقد أخبر بها القرآن فتسمى عندئذ إعجازاً. وهبة الزحيلي، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، سلسلة بين الأصالة والمعاصرة، عدد١٩، دار المكتبي، ط١، دمشق/سورية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص٨.

[2] كذلك قيد العلم بأن يكون تجريبياً، لأننا نجد أن العلوم التي فُسِّر بها في بداية التفسير العلمي، كان أكثرها بالعلوم الطبيعية، باعتبار أنّ التّجربة والمشاهدة كانت هي الأساس في منهجها، بل إن المنهج التجريبي لم يبدأ إلا بها، ومن ثمّ حاولت العلوم الأخرى تطبيق المنهج التجريبي في بحوثها، بغية أنْ تصبح أكثر دقة وموضوعية، فإن لم تستطع إلى ذلك سبيلاً، استعانت بأدوات المنهج العلمي التجريبي؛ فلذلك أخذت دائرة التفسير العلمي تتسع، وتحاول التفسير بكل ما أطلق عليه اسم علم. انظر أمثلة على ذلك: خليفة عبد السميع خليفة ، **الرياضيات في القرآن الكريم**، دار النهضة العربية، ط١، القاهرة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، حيث تحدث عن الأعداد والعمليات الحسابية ووحدات الزمن والمتواليات الحسابية المذكورة في القرآن، انظر مثلاً على المتواليات العددية: ن.م ، ص١٢٦. وفي أعداد تكرار الكلمات القرآنية انظر: عبد الرزاق نوفل، **الإعجاز العددي للقرآن الكريم**، دار الكتاب العربي، ط٤، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

وسنرى بعض تطبيقات هذه الصور لاحقا،أما بالنسبة إلى المفسرين، فقد يؤيد المفسر جميع صور التفسير العلمي أو يقتصر على شكل دون آخر.

فمثلاً الشيخ الطاهر ابن عاشور يقول بجميع أنواع التفسير العلمي، فهو يرى أنه لا مانع من ذكر تفاريع العلوم خدمة للمقاصد القرآنية، كجلب مسائل من علم التشريح لزيادة بيان عظمة القدرة الإلهية عند تفسير قوله تعالى في خلق الإنسان: ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [الحج: ٥] أو لمناسبة بين معنى الآية والمسائل العلمية، أو أنها تزيد في فهم المعنى، أو بقصد التوسع لرد المطاعن عن القرآن[١]، أو لإثبات أسبقية القرآن في ذكره لبعض العلوم، حيث لم تكن معلومة وقت نزول الوحي[٢].

أما هند شلبي[٣] فتجعل التفسير العلمي مقتصراً على الإعجاز العلمي حيث ترى أن "القول بالتفسير العلمي بالقرآن يعود إلى إبراز صفة الإعجاز فيه باعتباره صادراً عن الله وبالتالي شاهداً على صدق الرسالة المحمدية[٤]".

"فالذي يحسن فهمه حينئذ من مثل عبارتي الإعجاز العلمي في القرآن أو التفسير العلمي هو ملاحظة ما احتوى عليه هذا النص من معان يتعذر صدورها عن بشر زمن نزول القرآن لأنها تكشف عن واقع لم تكن العقول البشرية قد نضجت بعد لتقف عليه"[٥].

وكذلك رشيد رضا لا يقول بجميع أشكال التفسير العلمي، وإنما يقصرها على الإعجاز العلمي الذي يجعله قسمين، الأول: هو عجز العلوم عن أن تبطل أو تنقض شيئاً من القرآن الكريم، رغم أن ما ذكر فيه كان منذ أربعة عشر قرناً. الثاني: وهو ذكره لمسائل علمية لم تكن معروفة في عصر نزوله، تم اكتشافها في هذا العصر[٦].

أما محمد الصادق عرجون[٧] فيقصر التفسير العلمي على زيادة بيان المعنى القرآني بالعلوم، في سبيل تبيان الهداية الإلهية التي أودعها الله في القرآن؛ فهذه العلوم إنما تكون مساعدة "في بيان

---

[١] انظر: محمد الطاهر ابن عاشور، **التحرير و التنوير** ، الدار التونسية للنشر، د.ط، تونس، ١٩٨٤م، ١/ ٤٢.

[٢] انظر: ن.م، ١/ ١٢٧.

[٣] معاصرة مختصة بالتفسير لها كتاب التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق.

[٤] هند شلبي، **التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق**، مطبعة تونس قرطاج، ط١، تونس، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، ١٥٩.

[٥] ن.م، ص ١٦٠.

[٦] انظر: محمد رشيد رضا، **تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار**، دار المعرفة، ط٢، بيروت، د.ت، ١/٢٠٧ ص.٢١٠.

[٧] عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقاً، انظر له: محمد الصادق عرجون، **نحو منهج لتفسير القرآن**، دار السعودية للنشر، ط١، جدة، ١٣٩٢هـ/١٩٩٢م، ص٩٣.

المعنى الذي يهدي إليه أسلوب الآيات، ويكون هذا التفسير بمثابة دائرة معارف قرآنية تسد لدى العالم الإسلامي فراغاً يشعر به كل مسلم"[1]. ودعا إلى إخراج كتاب يستقصي الإسرائيليات التي حُمِّلها تفسير القرآن، للتنبيه عليها حتى لا يقع فيها المسلمون[2].

كذلك يحرص سيد قطب (ت ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م) على الاستفادة من العلوم في تفسير القرآن، ولكن دون أن يجري وراء النظريات لإثبات مصداقيته[3]، وإنما لتوسيع مدلول النص القرآني، بما يُكشف في الآفاق والأنفس، فمثلاً لا مانع من تتبع ما كشفه العلم من دقة وتناسق في هذا الكون، بما فيه من أرض، وشمس وقمر ...، لتوسيع مدلول قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[4] [الفرقان: ١].

إن هذا التفريق بين أشكال أو صور التفسير العلمي، لا يخرج المفسر المقتصر على شكلٍ منه، عن دائرة التفسير العلمي، لأنه كغيره يقول بضرورة الاستفادة من نتائج العلوم، خدمة للنص القرآني.

لكن هذا التفريق يعكس الأهداف التي يتوخاها المفسر من اتجاهه نحو شكل دون آخر، والأسباب التي جعلته يقتصر عليه، فمثلاً حين رأى سيد قطب أن العلم متغير متبدل، من جهة، وأننا نجعل حاكمية للعلم على النص، حين نثبت مصداقية القرآن به، من جهة أخرى، اقتصر على توظيف العلم في توسيع المدلول القرآني.

ثانياً: المؤيدون والاختصاص العلمي:

إن المفسر في هذا الاتجاه من التفسير إما أن يكون مختصاً بالعلوم الشرعية، أو غير مختص بها، وإنما مختصاً بفروع العلوم الأخرى كالطب والفلك والرياضيات ... هذا الذي انعكس على ما يفسرون به.

فالمختص بالعلوم الشرعية إما أن يقع بأخطاء علمية[5]، أو أن يستعين بأقوال المختصين لبيان الناحية العلمية المتعلقة بالآية.

---

[1] انظر: ن.م، ص٩٢.

[2] انظر: ن.م، ن.ص.

[3] انظر: سيد قطب، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، ط٥، د.م.ط، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، م٤/٢٣٧٥.

[4] انظر: ن.م، م١/١٨٣.

[5] هذه الأخطاء ترتبط بفروع العلوم الأخرى غير الشرعية.

مثال الأول: استعمال مصطلح النظرية للدلالة على الحقيقة العلمية، فقد سمى محمد محمود حجازي ظاهرة نقصان الأوكسجين وقلة الضغط عند الارتفاع في السماء نظرية علمية[١].

ومثال الثاني من المفسرين الذين ينقلون عن أهل الاختصاص، القاسمي[٢] (ت١٣٣٢هـ/١٩١٤م)؛ إذ إنه كلما أراد تفسير آية ما علمياً نقل عن مختص بالموضوع الذي تتحدث عنه الآية، فإذا كان هذا التفسير متعلقاً بعلم الفلك قال: "قال بعض علماء الفلك"[٣] وإن كان مرتبطاً بأمر الطب قال: "قال بعض علماء الطب"[٤].

كذلك المراغي (ت١٣٦٤هـ/١٩٤٥م) إذ يقول: "وقد طلبت إلى الأستاذ عبد الحميد سماحة وكيل المرصد الفلكي المصري بحلوان يدلي إلي بما أثبته علماء الفلك حديثاً في النظريات التي تضمنتها الآيات فكتب إلي ..."[٥].

ويلاحظ على بعض المفسرين أنهم ينقلون تفاسيرهم العلمية عن سابقيهم، كالمراغي في نقله عن تفسير المنار تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا من فَوْقِكُمْ أَوْ من تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾[٦] [الأنعام:٦٥] وكذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[٧] [الأعراف:٥٤].

أما المختص بالعلوم غير الشرعية فإنه قد يستعين بتفاسير المختصين السابقين ليختار منها ما قد ينسجم مع تفسيره، كحنفي أحمد[٨] في كتابه التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن؛ إذ إنه بعد أن يذكر الآيات المتعلقة بالموضوع يضع فقرة بعنوان "إيضاح المفسرين" يذكر فيها معنى ألفاظ الآية والمعنى العام لها، ثم بعد ذلك يقول: "التعليق على إيضاح المفسرين"[٩].

---

[١] محمد محمود حجازي: مختص بالعلوم الشرعية له التفسير الواضح. انظر: محمد محمود حجازي، **التفسير الواضح**، مطبعة المدني، ط٦، القاهرة، ١٣٩٦هـ/١٩٧٠م، م١/١٢. وداود سلمان السعدي، **أسرار الكون في القرآن**، دار الحرف العربي، ط١، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م. ص١١٠.

[٢] القاسمي مختص بالعلوم الشرعية، انظر: الأعلام، ١٣١/٢.

[٣] محمد جمال الدين القاسمي، **محاسن التأويل**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ط١، د.م.ط، ١٣١٣هـ/١٩١٤م، ٤٢٦٧/١١.

[٤] ن.م، ٦١٢٤/١٧.

[٥] **تفسير المراغي**، م.س، ١١/٢٣.

[٦] انظر: ن.م، ج١٥٣/٧-١٥٥. وانظر: **تفسير المنار**، م.س، ٤٩٠/٧-٤٩١.

[٧] انظر: ن.م، ٤٤٥/٨-٤٤٨. وانظر: **تفسير المراغي**، م.س، ١٧٠/٨-١٧١.

[٨] بكالوريوس في العلوم من جامعة درهام بإنجلترا، انظر: **التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن**، م.س، ص٣.

[٩] انظر: ن.م، ص٣١٨-٣١٩.

وقد لا يستعين المختص بغير العلوم الشرعية في تفسيره بأقوال المفسرين، وإنما ينطلق من ثقافته، ومما يمكن أن يوحي له ظاهر الآية من دقائق علمية يعرفها، كتفصيل تاج الدين محمود الجاعوني أخصائي الجراحة النسائية والولادة[1] في بيان الفروقات العلمية الدقيقة بين الذكر والأنثى بعد ذكره لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ [آل عمران : ٣٦]

هذا الأمر قد يؤدي بالمفسر الذي ينطلق من ثقافته وحدها، دون مراعاة قواعد التفسير إلى إسقاط معانٍ على الآية، لا تحتملها ولا تدل عليها، كتفسير حسن حامد عطية للماء الدافق في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦][2]، بتيار الدم المتدفق بغير إرادة، فإذا توقف عن تدفقه مات الإنسان[3]، مع العلم أن الماء في القرآن الكريم إذا أضيف إلى خلق الإنسان كان دالاً على النطفة.

ولا يشترط أن يكون اختصاص المفسر العلمي مطابقاً للموضوع الذي يفسر به، كتأليف عدنان الشريف كتباً متنوعة في اختصاصات عدة، منها: من علم الفلك القرآني – من علم الطب القرآني – من علوم الأرض القرآنية، مع أنه طبيب أخصائي في الأمراض العصبية والعقلية والنفسية[4].

ثالثاً: المؤيدون والمغالاة في التفسير العلمي:

حاول بعض المفسرين كطنطاوي جوهري أن يلتمس تفسيراً علمياً لكل آية من القرآن، فحمّل الآية ما لا تحتمل، بل إن إسهابه العلمي أخرجه عن إطار التفسير، كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠].

إذ يستطرد في بيان تركيب النار وتحليلها ويسهب في الحديث عن خواص الضوء والحرارة وما يتعلق بهما من الناحية الفيزيائية[1].

---

[1] انظر: تاج الدين محمود الجاعوني، **الإنسان هذا الكائن العجيب** (أطوار خلقه وتصويره في الطب والقرآن)، دار عمار، ط١، عمان الأردن، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ١/١٥.

[2] الآيات بتمامها هي قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥-٧].

[3] انظر: حسن حامد عطية، خلق الإنسان بين العلم والقرآن، نشر وتوزيع مؤسسة عبد الكريم عبد الله، ط١، تونس، ١٩٨٧م، ص٢٢٠.

[4] انظر: عدنان الشريف، من علم النفس القرآني، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت، ١٩٩٣م، ص١٣٣.

إن لفظ النار في الآية لم يشر إلى مكونات النار وفوائدها، و لم يسق للإخبار عن ماهيتها، وإنما لبيان حدث من أحداث قصة موسى عليه السلام.

هذا ما جعل بعض معاصريه ينتقدون طريقته في التفسير، كرشيد رضا؛ إذ يقول عنه: "يذكر فصولاً طويلة بمناسبة كلمة مفردة السماء والأرض من علوم الفلك والنبات والحيوان تصد قارئها عما أنزل لأجله القرآن"[٢].

ولكن هذا المنحى من التفسير لم يكن عند جميع من قال بالتفسير العلمي، فقد كان هناك من يراعي دلالة النص وسياق الآية وسباقها ومقصدها، فإن وجد صلة محتملة بين دلالة الآية وبين ما يقول به العلم الحديث، حاول الربط بينهما، كتفسير الطاهر ابن عاشور لقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥][٣].

ولكن إذا كنا نتحدث عن الاعتدال والمغالاة في التفسير العلمي فكيف يأمن المفسر عدم المغالاة فيه؟

من أجل عدم المغالاة وتحميل الآية ما لا تحتمل، أخذ المفسرون يضعون ضوابط للتفسير العلمي تكون معياراً، لقبول أو رفض تفسير آية ما علمياً. فما هي هذه الضوابط؟.

إن الكثير ممن اتجهوا نحو التفسير العلمي، لم يضعوا ضوابط لتفسيرهم، وإنما أشاروا إلى أهداف يريدون تحقيقها من وراء تفسيرهم هذا، كتفسير طنطاوي جوهري الذي فيه دعوة إلى دراسة العلوم الكونية، والتفوق على الفرنجة[٤]، وإلى رقي ونهضة الأمة[٥]، وحثٍ للكفار على الإيمان بالقرآن[٦]، وقد أدى هذا إلى تحميل النص ما لا يحتمل خدمة لهذه الأهداف، ويبدو أن المفسرين وجدوا ما عليه تفسير طنطاوي جوهري وأمثاله من استطراد وتحميل للألفاظ ما لا تحتمل، فأخذ بعض المؤيدين يضعون ضوابط للتفسير العلمي، كان من أهمها أن لا يكون ذكر المفسر للحقائق

---

[١] انظر: طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات، مطبعة مصطفى بابي الحلبي، ط٢، د.م .ط، ١٣٥٠هـ، ١٠/٨٢-٨٤.

[٢] **تفسير المنار**، م.س، ج١/٧.

[٣] انظر: **التحرير والتنوير**، م.س، ٢٣/٣٢٨.

[٤] **الجواهر في تفسير القرآن**، م.س، ١/٣.

[٥] انظر: ن.م، ١/٤٠.

[٦] انظر: ن.م، ١٠/٢٠٧.

العلمية غرضاً مقصوداً، وإنما أن يكون ذلك خدمة للمقاصد القرآنية[1]، وبهذا يتم الالتزام بالموضوع القرآني والهداية القرآنية، ومن الضوابط أيضاً أن تكون الحقيقة العلمية ثابتة وأن لا تكون نظرية، وضرورة وجود مختصين في مجال العلوم التجريبية أثناء التفسير العلمي؛ لأنه ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[2] [فاطر:١٤]، وبهذا لا يكون تفسير القرآن عرضة للتغير والتبدل.

إن أكثر هذه الضوابط[3] هي قواعد للتفسير ينبغي مراعاتها في أي نوع منه، عدا ما يجب على المفسر العلمي من معرفة علمية في الموضوع الذي يفسر به.

كما يبدو من هذه الضوابط الحرص على أن يكون الإعجاز العلمي، حقيقة واقعة، غير متكلف به، ينسجم مع قواعد التفسير العامة ولا يشذ عنها، رغم أنه جديد في نوعه، ولكن إلى أي مدى التزم المفسر العلمي بهذه الضوابط؟ وإذا كان فعلاً ملتزماً بها، فهل كان الالتزام بها كفيلاً في عدم الوقوع في التكلف وتحميل النص ما لا يحتمل؟ وإلى أي حد كان المفسر العلمي متناسقاً ومنسجماً في تفسيره غير متناقض؟

المطلب الثاني: تصنيف المعارضين[4]:

يجعل بعض الباحثين[5] رفض التفسير العلمي رفضاً للإفراط فيه، ولتحميل الآيات ما لا تحتمل، وتفسيرها بالنظريات التي لم تثبت بعد، وبالتالي فإن التفسير العلمي الخالي من الإفراط المتقيد بالضوابط لا أحد يعارضه، ولكن إلى أي مدى يمكن أن نعتبر ذلك صحيحاً؟ فإذا كان الرفض يؤول إلى التأييد فما هي أسباب مظاهر هذا الرفض؟ هل هي ثقافة المفسر أم أنها معارضة للإفراط فقط؟ أم لنوع من أنواع التفسير العلمي؟

---

[1] **التحرير والتنوير**، ١/٤٢-٤٣.

[2] انظر: بكر زكي عوض، **التفسير العلمي للآيات القرآنية**، حولية كلية الشريعة، عدد١٠، جامعة قطر، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م. ص٤٩٤.

[3] انظر مثالاً على هذه الضوابط: عبد الله بن عبد العزيز المصلح، **الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (تاريخه وضوابطه)**، هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة (رابطة العالم الإسلامي)، عدد٢، ط١، مكة المكرمة، ١٤١٧هـ، ص٢٧ -٣٢.

[4] لا يلزم من رفض المفسر للتفسير العلمي أن يكون رافضاً لتعلم العلوم الحديثة كالشنقيطي يدعو إلى تعلم العلوم الحديثة ولكنه يرفض تفسير القرآن بها ، انظر: محمد الأمين الشنقيطي، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، دار الكتاب العربي، د.ط، بيروت، د.ت، ٦/٤٧٩.

[5] أمثال: عمر أبو حجر، بكر زكي عوض، هند شلبي. انظر: **التفسير العلمي في الميزان**، م.س، ص١١٣. **والتفسير العلمي للآيات الكونية**، حولية كلية الشريعة، م.س، ص٤٩٤. **والتفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق**، م.س، ص٤٤.

أولاً: المعارضون والثقافة:

هل يمكن إرجاع رفض التفسير العلمي إلى عدم معرفة المفسر بالمكتشفات العلمية الحديثة؟

إذا كانت الإجابة بنعم فإننا سنجد الكثير من المفسرين لا يملكون ثقافة بالعلوم التجريبية، ولكنهم مع هذا لم يصرحوا – فيما بحثت – بتأييد أو رفض للتفسير العلمي، كتفسير تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف عبد الرحمن ابن ناصر السعدي[1].

كذلك نجد من يرفض التفسير العلمي[2]، يناقش بعض التفاسير العلمية الحديثة محاولاً ردها، أي أنه يدرك الأمور العلمية التي فسرت بها ولا ينكرها[3]، وإنما ينكر تفسير القرآن بها لأنه لا يجد دلالة من الآيات عليها، فمثلاً ينكر تفسير قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق:١٩]، بالمحاولات الحديثة لاكتشاف القمر وإرسال المراكب الفضائية، لأن سياق الآيات الذي جاءت فيه هذه الآية يمنع ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق:١٦-٢١]، فالآيات تستنكر شرك المشركين، مع عرض بعض آيات الله في الكون التي يبصرونها بأعينهم، لتكون حافزاً لهم على الإيمان، فقد أقسم الله عز وجل في هذه الآيات بالشفق والليل والقمر على أن الناس جميعاً ينتقلون في خلقهم من دور إلى دور ومن طور إلى طور، فمن طفولة إلى فتوة، ثم كهولة وهرم، فموت.

وكذلك ينكر تفسير قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن:٣٣] بالوصول إلى القمر، لأن القمر ليس خارجاً عن محيط السموات والأرض، بل هو كوكب تابع للأرض، فضلاً عن

---

[1] لم أجد في تفسيره إشارة صريحة لقبول أو رفض التفسير العلمي، سوى أنه ذكر أن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يمكن أن يعرفه العباد، فإذا أراد أن يذكر ما لا يعرفوه فإنه يذكر أصلاً جامعاً يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون، كما في قواه تعالى: ﴿ويخلق مالا تعلمون﴾ [النحل: ٨] انظر: عبد الرحمن ناصر السعدي، **تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق محمد زهري النجار، مطابع الدجوى، د.ط، القاهرة، د.ت، ١٨٦/٣.

[2] هو أحمد محمد جمال، انظر له: **على مائدة القرآن مع المفسرين والكتاب**، دار الفكر، ط٢، بيروت، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ص٣٢٣. هذا يؤكد لنا أن رفض التفسير العلمي لا يرجع إلى ثقافة المفسر العلمية.

[3] أنكر عبد العزيز بن باز دوران الأرض لأنه لم يكن يدرك أنه أصبح من المسلمات العلمية، وأخذ يثبت ذلك من الآيات القرآنية، وهو يرد على من يقول بدورانها. انظر له: **الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب**، مطبوعات الجامعة الإسلامية، ط٢، المدينة المنورة، ١٣٩٥هـ، ص٢١-٢٣.

أن الآية تتحدث عن أن الله عز وجل هو المهيمن والمسيطر على السموات والأرض؛ إذ لا يستطيع أحد الإفلات من سلطانه، ولا أن ينفذ من أقطار السموات والأرض[1].

ثانياً: المعارضون وصور التفسير العلمي:

تتفاوت مواقف المعارضين للتفسير العلمي، فمنهم من كان معارضاً له بجميع صوره، ومنهم من عارض بعضها.

فمن المعارضين لجميع صور التفسير العلمي محمد عزة دروزة[2] في تفسيره (التفسير الحديث) لأنه يرى أن ذلك خارج عن نطاق هدف الآيات الكونية التي تضمنت "لفت نظر الناس إلى ما يقع تحت أبصارهم ومشاهدتهم وحسهم، وتذكيرهم بشمول قدرة الله وعظمته ومطلق تصرفه وكونه الخالق المدبر الأزلي الأبدي، مما يؤيد ما قلناه [دروزة]، غير مرة من أن القصد من ذلك هو العظة واسترعاء الأنظار والأذهان ودعوة الناس إلى الخضوع لله تعالى وحده، ولهذا لا نرى طائلاً من وراء محاولة استنباط نواميس الكون والخلق فنياً، والتوفيق بين ما هو معروف من هذه النواميس وبين ما في هذه الآيات وأمثالها، ولا من وراء محاولة استخراج قواعد فنية إذ إن كل هذا خارج عن نطاق هدف الآيات"[3].

ولعل سبب معارضته لجميع أشكال التفسير العلمي ترجع إلى ربط فهم الآيات الكونية بما فهمه النبي ﷺ وسامعو القرآن، لأن مشاهد الكون في القرآن من الوسائل التدعيمية لمبادئ الدعوة، وهذه الوسائل تكون أقدر على "تحقيق غايتها حين يكون موضوعها مما يعرفه السامعون"[4].

إذا كان دروزة يجعل أسلوب الآيات الكونية مستمداً من مشاهدات المخاطبين في الكون والأنفس ومتساوياً مع مدركاتهم، وليس تقريراً فنياً[5]، فهل يعني ذلك أنه يمكن للآيات القرآنية

---

[1] انظر: **على مائدة القرآن مع المفسرين والكتاب**، م.س، ص٣٢٥ –٣٣٢. ونجد أن محمد أبو زهرة لم تمنعه قلة بضاعته في العلوم الكونية من أن يعلن تأييده للتفسير العلمي، لكنه يحجم عن التفصيل في هذا لمحدودية علومه الكونية كما ذكر. انظر: محمد أبو زهرة، **المعجزة الكبرى**، دار الفكر العربي، د.ط، د.م.ط، د.ت، ص٥٢٣-٥٢٤. وكذلك غيره من المفسرين الذين كانوا يستعينون في تفاسيرهم العلمية بالمختصين في علوم الفلك والطب كالقاسمي والمراغي.

[2] ولد محمد عزة دروزة في عام [١٣٠٥هـ/١٩٨٨م] درس في المدارس الحكومية و لم يتح له تتمة دراسته بعد المرحلة الإعدادية. انظر له: **التفسير الحديث**، ١٢/٢٨٠-٢٨٢.

[3] محمد عزة دروزة، **التفسير الحديث**، دار إحياء الكتب العربية، د.ط، د.م .ط، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م، ١٣٢/٤.

[4] ن.م ، ج٢/٤٤-٤٥.

[5] انظر: ن.م، ج٥/١٢٧.

أن تتعارض مع العلم الحديث باعتبار أن كثيراً من تصورات أهل عصر نزول الوحي عن الكون قد تصحبها خرافات؟.

إن دروزة لا يريد أن يجعل القرآن مقابل العلم فهو يرى أن لا موجب للإشكال إذا وجد هذا، لأن العبرة بمقصد الآية، وإخراج الآية عن ذلك لا يقتضيه روحها و لا يتفق مع أهدافها.

يقول دروزة في تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٧] بعد أن أخذ بقول من يرى أن الصلب والترائب للرجل: "وعلى فرض أن الترائب للمرأة كما قال بعض المفسرين فلا موجب للإشكال بسبب ما يعرف اليوم من أن الجنين يتكون نتيجة لتلقيح نطفة الرجل لبيضة المرأة. لأن روح الآيات تلهم أنها إنما قصدت تذكير السامعين بما في أذهانهم بصورة عامة، وتقرير قدرة الله وليست بسبيل تقرير [مسئلة]حياتية فنية، وإخراج الآيات عن هذا القصد لا يقتضيه روحها، ولا يتسق مع أهدافها الوعظية والتذكيرية والتدعيمية، بل ولامع مقاصد القرآن عامة"[١].

بينما نجد محمود شلتوت (ت١٣٨٣هـ/١٩٦٤م) مع إقراره بأن القرآن ليس كتاباً لشرح حقائق الكون، وأنه كتاب هداية وإصلاح[٢]، فإنه يكتفي من صور التفسير العلمي القول بأن "القرآن لم يصادم – ولن يصادم – حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول"[٣].

أما سيد قطب فإنه يعارض إثبات مصداقية القرآن بالعلوم الحديثة، لأننا بذلك نجعل العلم هو المهيمن، والقرآن تابعاً له، على حين أن حقائق القرآن نهائية مطلقة، بينما حقائق العلم نسبية متغيرة[٤]. ولكنه لا يرى مانعاً من الانتفاع بالكشوف العلمية لتوسيع مدلول الآيات القرآنية.

ثالثاً: المعارضون والإفراط في التفسير العلمي:

ترجع معارضة البعض للتفسير العلمي إلى إفراط بعض المفسرين فيه، فنرى أن هؤلاء المعارضين لا ينكرون التفسير العلمي بقدر ما ينكرون وينتقدون طريقة التفسير ذاتها.

---

[١] ن.م، ج٢/٥٧.

[٢] انظر: محمود شلتوت، **تفسير القرآن الكريم**، دار الشروق، ط٦، د.م.ط، ١٣٩٣هـ/١٩٧٤م، ص١٤.

[٣] ن.م، ن.ص.

[٤] انظر: في ظلال القرآن، م.س، م١/١٨٢.

فمثلاً أحمد محمد جمال هو من المعارضين للتفسير العلمي؛ لأنه يرى أن القرآن ليس كتاب نظريات علمية، ذلك لأن النظريات العلمية من شأنها أن تصدق اليوم وتكذب غداً، بينما القرآن الكريم "ما تناقض قط في أنبائه"، ففي تطبيق بعض إشارات القرآن على الاكتشافات والنظريات الحديثة، تعريض له للانتقاد والتناقض، وفي هذا ذهاب لقدسيته وتصديقه[1].

كذلك محمود شلتوت يرفض التفسير العلمي، لأنه يخرج القرآن عن مقصده الأساسي في الهداية والإصلاح، ويجعله كتاب نظريات للعلوم، ويُحمل الآيات ما لا تحتمل، فضلاً عن أنه يُعرّض القرآن للدوران مع مسائل العلوم وتجعله يتحمل تبعات الخطأ فيها[2].

فهم يعارضون آثار هذا التفسير، الذي يعرض القرآن للتناقض والخطأ ويذهب بقدسيته، فإن أمكن نفي هذه الأمور وجعل التفسير العلمي خادماً للهداية القرآنية، ودالاً على قدسيتها، لانتفت معارضتهم.

لذلك نجد أحمد محمد جمال في رده على من يفسر قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] بالوصول إلى القمر، فهو يجعل دلالة الآية على عدم القدرة على الإفلات من سلطان الله عز وجل أوضح وأبين في هذا العصر من ذي قبل، لأنه قد أثبت وكشف علم الفلك الحديث سر قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥] بأن "النفاذ من أقطار الأرض معناه احتراق الأرض عبر لبها المستعر، والخروج من الجهة المقابلة، وما من شك أن مجرد احتراق القشرة اليابسة للأرض معناه انطلاق مواد الباطن على هيئة بركان مدمر، ومثله احتراق أقطار السماوات"[3].

فهو مع رفضه للتفسير العلمي يجعل ما أثبته العلم يكشف عن سر قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥] وهذا يدل على أن رفضه للتفسير العلمي إنما هو للذي لا يتقيد بضوابطه، بينما ترجع معارضة البعض الآخر – كدروزة والخولي – للتفسير العلمي إلى أمور معرفية؛ فمثلاً دروزة كما ذكرنا سابقاً يربط فهم الآيات الكونية

[1] انظر: **على مائدة القرآن مع المفسرين والكتاب**، م.س، ص٣٢٣.

[2] انظر: محمود شلتوت، **تفسير القرآن الكريم**، دار الشروق، ط٦، د.م.ط، ١٣٩٣هـ/١٩٧٤م، ص١٣-١٤.

[3] **على مائدة القرآن**، م.س، ص٣٣٠.

بالمعهود زمن نزول الوحي، لذلك لا مجال عنده لأي تفسير بالعلوم الحديثة التي لم تكن معروفة وقتها.

ولكن إذا كنا أمام رأيين ومنهجين مختلفين فكيف انعكس ذلك على تفاسيرهم؟ وهل يمكن أن نستدل بآيات القرآن على أمور علمية دون أن نخل بالضوابط والقواعد؟ وكيف طبق التفسير العلمي؟ وما هي مجالاته وتطبيقاته؟.

المبحث الثاني: تطبيقات التفسير العلمي:

إن اختلاف طرق المفسرين في ربط الآية بالعلم، ولد صوراً مختلفة للتفسير العلمي[1]، يمكن حصرها في نوعين هما: الأول إسهاب وتفصيل علمي دون أن يكون هناك استدلال لفظي من الآية على ذلك، وهذا إما تحقيقاً لأهداف المفسر أو خدمة لمقصد الآية، أما النوع الثاني فهو الاستدلال بالآية ومدلول ألفاظها على ما يقول به العلم التجريبي. فهل كان المفسر في هذا الربط مراعياً لقواعد التفسير وضوابطه أم أن الأمر خلاف ذلك؟.

المطلب لأول: الإسهاب العلمي:

يقصد بالإسهاب العلمي التفصيل في ذكر العلوم دون مراعاة لدلالة ألفاظ الآية بشكل مباشر، فقد يراعي المفسر ذلك بشكل غير مباشر، كالإسهاب خدمة لمقصد الآية.

أما الإسهاب الذي تحمل فيه الألفاظ ما لا تحتمل فقد يكون فيه استدلال بالألفاظ ولكن دون أن تحتمل تلك الدلالة، وقد تكون دلالة الألفاظ تحتمل الاستدلال بها، ولكن سياق الآية وسباقها ينفي عنها ذلك الاحتمال فكل هذا تبرير مباشر لما في ذهن المفسر، سواء أكان هذا الذي في ذهنه مادة علمية أو هدفاً يريد تحقيقه من وراء ذلك، فالمترجح هنا ليست دلالة الآية بقدر الإسقاط والإسهاب العلمي، إذ إن المفسر هنا لا ينطلق من دلالة الآية وإن كان حسب الظاهر يستدل بها، لكنه استدلال لا تدل عليه، فهو يشترك مع غيره بالاستدلال بالآية وبتحقيق الأهداف، ولكنه يختلف عنهم في أنه في كل هذا يسقط معانياً على الآية لا تدل عليها.

أولاً: الإسهاب خدمة للمقصد:

وجد المفسر بالإسهاب العلمي خدمة للمقصد القرآني أو مقصد الآية، فمن مقاصد

[1] حسب مابدا لي.

الآيات الكونية في القرآن إثبات وجود الله والاستدلال على وحدانيته، وبيان صفاته الدالة على عظمته وعلمه ورحمته وحكمته ...، لذا لم يجد المفسر العلمي مانعاً في أن يسهب في بيان الأسباب العلمية للظاهرة الكونية المذكورة في الآية طالما أن ذلك يزيد المعنى جلاء ووضوحاً، ويحقق الغاية التي سيقت الآية من أجلها، أو أن يبين الحكمة العلمية من تحريم القرآن لبعض الأشياء أو إباحته لغيرها، طالما أن في ذلك تعزيزاً للحكم الشرعي وخدمة للتشريع الإلهي، أو أن يقرب الأمور الغيبية التي ذكرها القرآن إلى الأذهان بأمور علمية، وهذا خدمة لدعوة القرآن للإيمان بها، وأن الإيمان بها لا يعارض الأمور العلمية، أو أن يرد المطاعن عن القرآن باستخدام نتائج العلم التجريبي.

يلاحظ في كل ذلك أنه لا يوجد استدلال مباشر بالآية على دقيقة علمية سبق القرآن إلى ذكرها قبل اكتشافها في العصر الحديث، رغم أن بيان هذا السبق قد يخدم المقصد القرآني بإثبات أن القرآن من عند الله عز وجل لكنه لا إسهاب فيه لأنه متعلق بالدلالة.

١- الإسهاب العلمي خدمة لمقصد الآية:

يشير الطاهر ابن عاشور في تفسيره إلى مقصد كل آية يفسرها وذلك لأنه يرى أنه ينبغي أن يكون غرض المفسر "بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بأتم بيان يحتمله المعنى ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم، أو يخدم المقصد تفصيلاً وتفريعا"[1] لذلك نراه في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢] يبين المقصد منها بأنه امتنان بما هو ضروري لبدن الإنسان من الغذاء الذي كان في الأصل نباتاً أخرجته الأرض بعد نزول الماء عليها من السماء، ومن هنا يجد ابن عاشور الفرصة مناسبة للتفصيل العلمي، ليفسر ظاهرة نزول الماء من السماء كما كشف عنها العلم الحديث،[2] وهو في هذا يزيد مقصد الآية وضوحا وتحقيقا، فالآية ذكرت ظاهرة نزول المطر، وابن عاشور فسر هذه الظاهرة ببيان أسبابها من الناحية العلمية[3].

---

[1] التحرير والتنوير، م.س، ج١/٤١.

[2] انظر: ن.م، ج١/٣٣٣.

[3] انظر أيضا أمثلة على ذلك: **الإسهاب في بيان أطوار خلق الجنين للاستدلال بتطور خلق الإنسان على عظيم قدرة الله وحكمته ودقائق صنعه مما جاءت لأجله الآية:** ن.م، ج٢٣/٣٣٣-٣٣٤. **التفصيل في خلق الأجرام السماوية للاستدلال على**

٢- بيان أسباب الظواهر علمياً[١]:

تعرض القرآن الكريم لذكر الظواهر الكونية من رعد وبرق ونزول للمطر ... وغيرها من الظواهر التي كانت مرئية في عصر نزول القرآن، وهي مرئية أيضا في عصرنا، لكن الذي اختلف أن أسبابها وقوانينها لم تكتشف إلا في هذا العصر، فلماذا خص القرآن الكريم هذه الظواهر بالذكر دون غيرها؟ هل لأن الإنسان يشاهدها في كل زمان ومكان أم لوجودها في البيئة التي نزل بها القرآن أم لدورها الرئيسي على هذه الأرض؟.

لم ير أصحاب اتجاه التفسير العلمي أن ذكر القرآن لهذه الظواهر هو بسبب نزوله على بيئة معينة، لأن دعوته عامة لكل الناس في كل زمان ومكان، لذا فإنه سيكون متوافقا مع ما يثبت من الحقائق، ولن يتعارض معها، وفي هذا دلالة على أنه من عند الله عز وجل وصالح لكل زمان ومكان[٢]، وإثبات ذلك يعتبر مقصداً قرآنياً[٣].

وخدمةً لهذا المقصد القرآني، أخذ المفسر العلمي يسهب في بيان تفسير هذه الظواهر وأسبابها وعللها حسب ما توصل إليه العلم الحديث[٤].

٣- التعليل العلمي لعدم إدراك الشمس للقمر[٥]:

وحدانية الله تعالى وسعة رحمته تحقيقا لمقصد الآية: **تفسير المنار**، م.س، ج٢/٥٧ -٥٩. كذلك التفصيل **في مظاهر الحكمة في خلق الشفتان واللسان لأن آيات الأنفس قد دلت على صفتي الخلق والحكمة**: دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث، م.س، ص٣١٩ -٣٢٠.

[١] الآية تذكر الظاهرة والمفسر يبين أسبابها العلمية خدمة للمقصد القرآني.

[٢] انظر: **التحرير والتنوير**، م.س، ج١/ص٤٥ ص١٢٧ ص١٢٩.

[٣] انظر: ن.م، ج١/ص٤٢ص٤٤-٤٥.

[٤] انظر أمثلة على ذلك: **التعليل العلمي لفقدان يعقوب عليه السلام بصره**: عزت عبد العظيم الطويل، **في النفس والقرآن الكريم**، د.ط، الإسكندرية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص١٤٤. التعليل العلمي لعدم وجود أعمدة للسماء: وحيد الدين خان، **الإسلام يتحدّى**، تعريب ظفر الإسلام خان، تحقيق عبد الصبور شاهين، دار البحوث العلمية، ط٢، د.م.ط، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص١٤٣. التعليل العلمي لمرحلة الشيخوخة: **دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث**، م.س، ص١٨٠. **تفسير ظاهرة البرق علمياً**: من علوم الأرض القرآنية، م.س، ص٨٨-٩٠. تفسير ظاهرة تعدد المشرق والمغارب علمياً لرد المطاعن عن القرآن بدعوى التناقض بين آياته: شوقي أبو خليل، **الإسلام في قفص الاتهام**، دار الفكر، ط٥، دمشق، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٥٠. التحليل العلمي للأعراض التي أصابت زكريا عليه السلام: **التناسق الهرموني في أوائل سورة مريم**، مجلة الإعجاز، العدد الثالث، م.س، ص٣٠-٣٧.

[٥] إن في التعليل العلمي للظواهر الكونية التي ذكرها القرآن إشارة إلى ارتباط دعوة القرآن بالمحسوسات، وحث على التأمل بها، والالتفات إلى أسرارها، هذا الذي يؤدي إلى القول بعدم معارضته للعلم التجريبي.

يعلل وهبة الزحيلي علمياً عدم إدراك الشمس للقمر المذكور في قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠] بأن لكل من الشمس والقمر مداره المستقل عن الآخر، لأن الشمس تسير في اليوم مقدار درجة، بينما القمر يسير مقدار (١٣) درجة في اليوم، والشمس تسير في مدارٍ نصف قطره (٩٣) مليون ميل وتتمّ دورها في سنة، بينما القمر يدور حول الأرض كل شهر في مدار نصف قطره (٢٤) ألف ميل[1].

٤- تفسير الأمور الغيبية على ضوء العلوم الحديثة:

لم يجد المفسر العلمي بأساً في أن يجعل نتائج العلوم التجريبية خادمة لدعوة القرآن إلى الإيمان بالغيب[2]، ودالة عليها، و على أن لا تناقض بينها وبين العلم كأن يبين علمياً أن الظواهر الكونية التي ذكرها القرآن كأسباب لفناء العالم، أنها ستحدث أو أن يقيس الأمور الغيبية على الأمور العلمية، تقريباً للأذهان.

فأما الأولى وهي أن يفسر علميا كيفية زوال العالم المذكور في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ [الواقعة: ١-٦] فقد وضح ذلك رشيد رضا بنظريات فلكية نقلها عن بعض الفلكيين[3].

يلاحظ أن المفسر به هو تنبؤات مستقبلية على ضوء قواعد العلم الحديث، فهي بهذا تعتمد على إحدى النظريات التي تفسر نهاية العالم[4].

---

[1] انظر: وهبة الزحيلي، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، دار الفكر المعاصر، ط١، بيروت، دمشق، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج١٧/٢٣.

[2] من الأمور الغيبية التي استدل القرآن عليها بالظواهر الكونية ، البعث بعد الموت قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥]. يدعو ابن عاشور إلى الاقتصار على ما ذكره القرآن من أمور غيبية وعدم الزيادة عليه "فما أعرض الشارع عن بيانه من هذا النوع، يجب أن نقتدي به كما علمنا الله تعالى بقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥] محمد الطاهر بن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، الشركة التونسية للتوزيع، د.ط، تونس، د.ت، ص٤٥. وهذا الذي يقصده إنما ينحصر في إطار فهم الأمر الغيبي الذي دعا القرآن إلى الإيمان به.

[3] انظر: **تفسير المنار**، م.س ،ج٩/٢٤٩. كذلك رجح منصور حسب النبي أن قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر : ١] يتحدث عن علامة من علامات الساعة التي لم تحدث بعد، (وهو في ذلك يخالف جمهور المفسرين الذين جعلوا انشقاق القمر في عصر رسول الله ﷺ) فهي تنبئ بأن القمر سينشق في المستقبل، رجح ذلك لأنه وجد في العلم الحديث ما يؤيده، ومن ثم يذكر رأي العلم في انشقاق القمر، فيشرح الحقائق العلمية التي أدت إلى هذه التوقعات. انظر: منصور حسب النبي، **الكون والإعجاز العلمي للقرآن**، دار الفكر العربي، د.ط، د.م.ط، د.ت، ص٣٧٠-٣٧٥.

[4] انظر: **من علم الفلك القرآني**، م.س، ص ٣٦ -٣٩.

أما تقريب الأمور الغيبية للأذهان بأمور علمية[١]، فقد وجد المفسرون في القرآن الكريم، مستنداً لهم في هذه الطريقة، فقد قاس القرآن الحياة بعد الموت على اليقظة بعد النوم، وقاس حياة الأموات بعد الموت على حياة الأرض بعد موتها بالنبات[٢].

ويقر مصطفى نقرة بعدم إمكانية قياس عالم الغيب على الشهادة إلا لتقريب الحقائق العظمى إلى الأذهان، حتى لا نشبه الصفات الإلهية بالحادثات المادية.

فيحسب سرعة الملائكة بالاعتماد على سرعة الضوء في كوننا المادي، وعلى حسب ما ورد ذكره من سرعتهم في الآيات التالية: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] ليصل إلى أن ثانية علوية تعادل =١٨٥٠ –٣٧ ثانية ضوئية[٣].

فعلى هذا القياس التقريبي تكون حركة العالم العلوي تفوق حركة تموجات النور العادي التي تعتبر أسرع ما في الكون المادي (سرعة النور العادي =٣٠٠,٠٠٠ كم/ثا). وعلى ضوء ذلك يمكن فهم أمور كثيرة ذكرها القرآن و لم تستطع العقول البشرية فهمها[٤]، "لأنها تنطبق على مفاهيم نظرية النسبية التي لم تكن معروفة قبل هذا القرن"[٥]، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٤٥] وعلى هذا أيضاً يستحيل رصد حركة العالم الملائكي، فسرعته تفوق سرعة النور بحوالي ٣٧ إلى ١٨٥٠ مرة، وتفوق سرعة الإلكترونات بحوالي ٤٦ إلى ٢٣١٢ مرة[٦].

---

[١] نجد المراغي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد : ١١] يبين عدم بُعد أمر الحفظة عن العقل بما اكتشفه العلم، فكثير من الأعمال العامة اليوم أصبحت تحصى بآلات دقيقة كالآلات (العدادات) التي تحصي المياه والكهرباء وتيارات الأنهار "وكلما تقدمت العلوم وكشفت ما كان غائباً عنا كان في ذلك تصديق أيما تصديق لنظريات الدين ووسيلة حافزة للاعتراف بما جاء فيه" انظر: **تفسير المراغي**، م.س، ج١٣/ ٧٧.

[٢] انظر: ابن قيم الجوزية، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، د.ط، د.ط.م، د.ت، ج١/١٥٩ –١٦٠.

[٣] انظر: مصطفى نقرة، القرآن والبحث في إعجازه العلمي، رسالة دكتوراه حلقة ثالثة، جامعة الزيتونة، إشراف عبد الله الأوصيف، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص١١٧-١١٩.

[٤] انظر: ن.م، ص ١١٩.

[٥] ن.م، ن.ص.

[٦] انظر ن.م، ص ١٢٧.

"لذلك فمعلوماتنا عن العالم غير المنظور هي معلومات عقلية وفكرية ونظرية لا يمكن أن تخضع للتجربة الحسية تماما كما هي الحال بالنسبة لبعض مواضيع الفيزياء النظرية التي نؤمن بها"[1].

٥- بيان الحكمة[2] العلمية من الأحكام الشرعية:

لقد انطلق المفسر العلمي في بيانه للحكمة العلمية من الأحكام الشرعية، من "أن أحكام الشريعة كلها مشتملة على مقاصد وهي حكم ومصالح ومنافع"[3] ومن أمثلة ذلك بيان الحكمة العلمية من تحريم لحم الخنزير في الإسلام، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] فلحم الخنزير يسبب أمراض عديدة منها: مرض الشعرية والدودة الشريطية والالتهاب السحائي المخي وتسمم الدم[4].

نخلص إلى أن المفسر العلمي حاول أن يجعل من العلم خادماً لمقاصد القرآن الكريم وفي الوقت نفسه يثبت أن لا تعارض بين القرآن والعلم، فقد كان يستفيد من كل مناسبة يمكن أن تكون الآية أو مقاصد القرآن دافعة إليها.

ثانياً: الإسهاب تحقيقاً لأهداف المفسر:

وجد المفسر العلمي في الإسهاب تحقيقاً لأهدافه، وليس معنى ذلك أن طرق التفسير العلمي الأخرى خالية من الأهداف التي يريد المفسر تحقيقها، ولكنها طغت هنا على ذهن المفسر، فكانت منطلقه الوحيد، دون الالتفات إلى دلالة النص، كطنطاوي جوهري الذي يرجو من تفسيره أن يشرح الله به القلوب، ويهدي به الأمم، وأن يكون داعياً إلى درس العلوم لإحراز التفوق على الفرنجة في كافة المجالات[5]؛ لذا جعل "آيات الوحي مطابقة لعجائب

---

[1] ن.م، ن.ص. وفي هذا إشارة إلى أن الأمور الغيبية التي دعا إليها القرآن لا تتعارض مع العلم الحديث.

[2] تستعمل الحكمة بمعنى قصد الشارع أو مقصوده . انظر أحمد الريسوني ، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، سلسلة الرسائل الجامعية ، عدد ١ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط١ ، د.م .ط ، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م ـ ، ص ١٦ .

[3] مقاصد الشريعة الإسلامية ، م.س ، ص ٤٩ .

[4] انظر : الطاهر الغربي ، التغذية في الإسلام يحققها العلم الحديث ، رسالة ماجستير ، اختصاص التغذية التطبيقية ، المعهد القومي للتغذية ، ١٩٧٩م ـ ، تونس ، د.ت ، مقدمة زهير القلال ،ص ٦٣ـ٦٤ . ويبين عبد الحميد دياب وأحمد قرقوز(قدم دياب وقرقوز كتابهما الطب في القرآن الكريم كبحث لنيل الشهادة في الطب .) الحكمة من تحريم الميتة في قوله تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ....﴾ [المائدة : ٣] انظر : مع الطب في القرآن الكريم ، ص ١٣٣-١٣٤ . وانظر : مجلة الإعجاز ، العدد٣ ، ذبح الحيوان قبل موته ضمان لطهارة لحمه من الجراثيم والمكروبات ، لقاء مع جون هونوفر لارسن ، كبير أطباء المشفى الرسمي في كوبنهاجن ، ص ٢٢ـ٢٦ .

[5] انظر ، الجواهر في تفسير القرآن ، م.س ، ج٣/١ .

الصنع"[1] هذا الذي أدى به إلى تحميل الآيات مالا تحتمل[2] والخروج عن موضوع التفسير. وفيما يلي نماذج تطبيقية:

١ – عدم مراعاة الموضوع:

إن حرص طنطاوي جوهري على أن يجعل آيات القرآن الكريم مطابقة لما تقول به العلوم الحديثة، حمله على أن يستغل أي مناسبة، لكي يبين فيها أن القرآن قد دل وحوى على هذه العلوم، ولو لم يكن المقام يستدعي ذلك، فلا يبالِ أن يبين معنى أي لفظ من الناحية العلمية، ذكر في معرض قصة قرآنية، كلفظ النار في قوله تعالى: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠)﴾ [طه:١٠] فهو يستطرد في بيان تركيب النار وتحليلها علمياً، ويسهب في الحديث عن خواص الضوء والحرارة وما يتعلق بهما من الناحية الفيزيائية[3]، فمثلاً يقول: "رأينا في أضواء العناصر الأرضية خطوطاً سوداء تقاطع الأشعة السبعة التي أضعفها الأحمر وأقواها البنفسجي، وهذه الخطوط تكون في كل عنصر بحسبه فهي مختلفات في العناصر اختلاف البياض في أشخاص الناس"[4].

"ما هي الحرارة؟ أجمع العلماء على أن هناك مادة لطيفة جداً تتخلل كل جسم جامد وغيره وهي (الأثير) والأجسام كلها متحركة ذراتها دائماً فيه كما تتحرك السيارات حول الشمس"[5].

إن هذا التفصيل العلمي لا يتفق وموضوع الآية، فلفظ النار فيها لم يسق للإخبار عن ماهية النار ومكوناتها وفوائدها، وإنما ذكر في معرض بيان الآية لحدث من أحداث قصة موسى عليه السلام "التي عرض القرآن فيها نموذجاً رفيعاً من أساليب التربية الإلهية للرسل"[6].

أطلق طنطاوي جوهري على تفسيره اسم الجواهر في تفسير القرآن، فهو يعتبره تفسيراً من التفاسير، لهذا كان يجب عليه أن يتقيد بموضوع التفسير ومجاله، ولكن نجد أن الأمر على خلاف ذلك؛ إذ إنه في تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:٥٠] يسهب في العلوم ويعتبر الآية تمثيلاً للقصص القرآني بالنظام الطبيعي، لذلك يذكر

---

[1] ن.م ،ج١/٢ .

[2] إن تصنيف المفسرين إلى مغال في التفسير العلمي وإلى معتدل لا يمنع أن يفرط المعتدل في تفسيره العلمي في بعض الآيات أو العكس ، لذلك تتبعت في الأمثلة تفسير الآيات دون الالتفات إلى هذا التصنيف .

[3] انظر : ن.م ، ج١٠/٨٢ –٨٤ .

[4] ن.م ،ج١٠/٨٢

[5] ن.م ، ج١٠/٨٤ .

[6] التهامي نقرة ، سكيولوجية القصة في القرآن ، الشركة التونسية للتوزيع ، ط٢ ،تونس ، د.ت . م.س ، ص٢٦١ .

ثلاثة جواهر تتعلق بالآية فيتحدث عن السمك والدجاج والزهرة والضفادع، وخواص كل نوع وكيفية تناسله معبراً عن ذلك كله بالرسوم، إلى أن يصل إلى الإنسان، فيعقد موازنة بين جنين المرآة وجنين الدجاجة ... ويبين كيفية تكون الجنين في الرحم، ثم ينتقل إلى ما ابتدعه الحكيم الهندي في الشطرنج ويفصل في مجال القياس، ثم يعقد الفصل السابع ليبين المقصود من هذا الوجود أهو الشهوة أم العقل؟ ...الخ[١].

هذه هي الجوهرة الأولى فقط!! وقد ذكرت الموضوعات التي تحدث فيها دون تفاصيلها.

صحيح أن الآية تفتح المجال واسعاً للتأمل في آثار الألوهية المدبرة لهذا الوجود[٢].

لكن ذلك يبقى مشروطاً في كتب التفسير بعدم الاستطراد الذي يخرج عن الموضوع وحدود التفسير وعن المقصد الذي سيقت من أجله الآية[٣].

٢- عدم مراعاة السياق:

ذهب محمد كامل عبد الصمد مؤلف كتاب الإعجاز العلمي في الإسلام (القرآن الكريم) إلى أن قوله تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٣] يدل على أن القرآن تنبأ بوسائل الاتصال الحديثة، فلقد صار بإمكان الشخص أن يتصل مع غيره من مكان بعيد بواسطة الهاتف، وأن يسمع الإذاعة من دولة بعيدة وأن يرى عن بعد بواسطة التلفاز[٤]، ليصل بذلك إلى أن هذا التنبؤ يعد إعجازاً في المقاييس العقلية[٥].

---

[١] انظر : الجواهر في تفسير القرآن ، م.س ، ج ١٠/١٠٠-١٢٧ .

[٢] انظر : سيكولوجية القصة في القرآن ،م.س ، ص٢٦٢ .

[٣] وكذلك في تفسيره لقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَانُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ(١٩) ﴾ [الملك :١٩] يستطرد في بيان أقسام الحيوان ، وكيفية تكون البيضة مع عرض أشكال لها ثم يقسم الجوارح إلى قسمين ثم ينتقل إلى بيان الطيور المقلدة للإنسان (الببغاء) ثم يذكر أنواع الطيور من حمام ودجاج وطيور منسوجة الأرجل ولا ينسى أن يرفق ذلك كله بأشكال لها.

إن الآية تدعو إلى التأمل في كيفية بسط الطيور لأجنحتها وضمها انظر : تفسير القرآن العظيم ، م.س ، ج٤/٥١١ .تفسير النسفي ، م.س ، ج٤/٢٧٦ ، **لا في كل نوع من أنواع الطيور ، فضلاً عن الإسهاب الذي يخرج عن موضوع الآية ومقصدها** . انظر : الجواهر في تفسير القرآن ، م.س ، ج٢٤/٢٣٣ —٢٤٠ . انظر أيضا : الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق ، م.س ، ص٣٧٣-٣٨٥ .

[٤] انظر : محمد كامل عبد الصمد ، الإعجاز العلمي في الإسلام (القرآن الكريم) ، الدار المصرية اللبنانية ، ط٢ ،د.م.ط ، ١٤١٣هــ ١٩٩٣مــ ، ص٣٥٥ .

[٥] انظر : ن.م ،ص٣٥٦ .وانظر أيضا: عبد الله عمر نصيف ، الماء ودوره في تلوين الصخور .. نظرة إيمانية ، مجلة الإعجاز ، العدد الثاني ، م.س ، ص٢٩.

يبدو لي أنه إذا نظرنا إلى سياق الآية نجد أنها معطوفة على ما قبلها وهو قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ [سبأ:٥٣] الذي هو حديث عن الكفار، وتوضح ذلك الآيتان اللتان قبلها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥١-٥٢] إن الآيات تتحدث عن إعلان الكفار عن إيمانهم يوم الفزع، ولكن لن ينفعهم هذا التعاطي للإيمان، لأنهم قد بعدوا عن مكان قبوله منهم، ويأتي بعد ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٣] فلقد كانوا كافرين في الدنيا ينكرون الأمور الغيبية من جنة ونار وحساب وبعث ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ عن الصدق والصواب أو كما قال تعالى: ﴿رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢] أي قولهم في رسول الله مرة شاعر، ومرة مجنون وأخرى كاهن. وهذا تكلم بالغيب لأنهم لم يشاهدوا منه كذباً ولا سحراً ولا شعراً فكان اتهامهم له بأمور بعيدة عن حاله[١].

هذا هو تفسير الآية إذا راعينا سباقها، فضلاً عن أن تفسير الآية بالتنبؤ بوسائل الاتصال الحديثة يجعل هذه الأخيرة حكراً على الكفار بمقتضى سباق الآية وسياقها، بينما الواقع خلاف ذلك.

٣- إسقاط المصطلح العلمي على اللفظ القرآني:

فسر كمال أحمد بزّي لفظ التقلب في قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ[٢] ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف:١٨] بمصطلح الانقلاب، أي بالانقلابين، الانقلاب الشتوي، والانقلاب الصيفي اللذين يحدثان في ٢٢كانون الأول، وفي ٢١ حزيران من كل عام أثناء دوران الأرض حول الشمس، حيث تتغير جهة دورانها إلى الجهة المضادة، وتتم هذه الحركة بانقلاب سريع يستدل على هذا التفسير بوضع الكلب الباسط ذراعيه بالوصيد، لأن الكلب لا يتقلب من جهة إلى أخرى أثناء نومه ، لذا فإنه ينفي أن يكون المقصود من التقلب تقلب النائم المعهود من جنب إلى آخر[٣].

إن مصطلح الانقلاب من وضع الإنسان في العصور المتأخرة، أي بعد نزول القرآن بفترة زمنية طويلة، فأن نأتي إلى أي مصطلح علمي ونسقطه على الألفاظ القرآنية لمجرد الاشتراك بالأصل اللغوي فإن ذلك يذهب بمعاني ألفاظ القرآن الكريم، وفضلاً عن هذا فإن ما استدل به على ذلك من وضع

---

[١] انظر : ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، مؤسسة الريان ، ط٤ ، الكويت ، ١٤١٨هـ ١٩٩٨مـ، ج٣/٧١٣ ، تفسير النسفي، ، دار الكتاب العربي ، د.ط ،بيروت ، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨مـ ، ج٣/٣٣١ .

[٢] قلب :القلب: تحويل الشيء عن وجهه ، تقلّب الشيء ظهراً لبطن ، كالحية تتقلب على الرمضاء . لسان العرب ، مادة : قلب .

[٣] انظر : المعارف والعلوم الحديثة في القرآن الكريم ، م.س ، ص٨٤-٨٥ .

الكلب النائم لا يدل على قوله؛ لأن الكلب من ضمنهم فلا بد أن يشمله الانقلاب الذي ذكره.

يذكر الآلوسي تعليلاً لهذا التقليب بأنه لكي لا تأكل الأرض أجسادهم، وذلك حفظاً لها بما جرت به العادة[1].

نخلص مما سبق أن بعض التفاسير العلمية عكست الأهداف التي يريد المفسر العلمي تحقيقها، من إظهارٍ للصلة بين العلم والقرآن، وأن آيات القرآن دالة على ما يقول به العلم، فكان كل ذلك على حساب النص، حيث طغت المادة العلمية التي يريد المفسر أن يربطها بالنص القرآني على تفسيره، فلم يلتفت إلى موضوع الآية ولا إلى سياقها ولا إلى دلالات ألفاظها ...، وإنما كان همه أن يجعلها دالة على ما يقول به العلم، هذا الذي أدى إلى تفسيرٍ للظواهر الكونية وليس إلى تفسير آيات القرآن الكريم.

المطلب الثاني: الاستدلال بالآية على أسبقية القرآن في ذكره للعلوم:

حاول المفسر العلمي أن يستدل بالآية على أن فيها ذكراً للعلوم الحديثة. ولكن هل هذه الدلالة متفق عليها بين جميع من يقول بالتفسير العلمي؟ ومن كان المحدد لهذه الأسبقية العلم أم النص؟ وهل استطاع المفسر أن يستدل بالآية على أسبقية القرآن في ذكره للعلوم دون أي تكلف وتحميل للآيات ما لا تحتمل؟

١- تحديد معنى المصطلح القرآني على ضوء العلم الحديث:

يذكر القرآن مراحل التخلق البشري في الآيات التالية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

---

[1] انظر : **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، م.س ، ج١٥/٢٢٤**.وانظر: ـــ إسقاط المصطلحات العلمية على الأحرف القرآنية : **المعارف والعلوم الحديثة في القرآن الكريم ، م.س ، ص١٦٤** . ـــ التصرف في الأعداد القرآنية لتوافق الأرقام العلمية : **المعارف والعلوم الحديثة في القرآن ، م.س ، ص٨٧-٨٩** . عدم مراعاة المصطلح القرآني : **حسن حامد عطية ، خلق الإنسان بين العلم والقرآن ، م.س ، ص٢٢١-٢٢٢** . ـــ عدم التفسير بآيات القرآن : **أحمد مطهر ، جولة في أعماق البحار والمحيطات : منطقة المصب والحاجز بين البحرين ، مجلة الإعجاز ، العدد الثالث ، ربيع الثالث ١٤١٨هـ ، ص٤٤وما بعدها** . ـــ إلزام اللفظ ما لا يلزم : **عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، تحقيق : توفيق محمد شاهين محمد الصالح رمضان، دار الفكر، ط٣، بيروت، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م ، ص٦٠٣** .

قسمت الآية مراحل تخلق الجنين الإنساني إلى ثلاث مراحل أساسية، وفصلت بينها بحرف "ثم" الذي يفيد الترتيب مع التراخي، "فالمرحلة الأولى هي مرحلة النطفة، والمرحلة الثانية هي مرحلة التخليق، والمرحلة الثالثة هي مرحلة النشأة"[١].

أما المرحلة الثانية فتتألف من أطوار أربعة هي "العلقة، المضغة، العظام، اللحم"[٢]، وتبدأ هذه المرحلة في الأسبوع الثالث، وتنتهي في آخر الأسبوع الثامن.

ولأن العمليات التخلقية للجنين في هذه المرحلة تتلاحق فيها الأحداث بسرعة كبيرة، فقد استعمل القرآن الكريم حرف العطف "الفاء" الذي يدل على الترتيب مع التعقيب[٣].

وتتناول مجلة الإعجاز طوري العلقة والمضغة في عددها الثاني بالدراسة[٤]:

أ- طور العلقة: تبدأ بالفهم اللغوي للفظ العلقة من كتب اللغة، فتذكر أنها مشتقة من عَلَقَ "وهو الالتصاق والتعلق بشيء ما"[٥]، والعلقة: دودة في الماء تمتص الدم، وتتغذى على دماء الحيوانات التي تلتصق بها، وتطلق على الدم الجامد وعلى الدم الرطب. ولقد جاءت في القرآن الكريم مطلقة لتشمل جميع المعاني التي ذكرت[٦].

ثم تبين مجلة الإعجاز التحقيق العلمي للنص، إذ تلتصق المتكيسة الجرثومية (النطفة تامة التكوين) بجدار الرحم في بداية طور الحرث (الانغراس) من اليوم السادس، وتستغرق هذه العملية حتى تترزع تماماً أكثر من أسبوع لتلتصق النطفة بالمشيمة البدائية بواسطة الحبل السري (ساق موصلة)، وفي أثناء هذه العملية تأخذ العلقة شكلاً جديداً، وتفقد النطفة شكلها الذي كانت عليه قبل عملية الحرث، وهذا يتفق مع الوصف القرآني للعلقة؛ إذ إن أحد مدلولاتها "التعلق بالشيء"[٧].

"أما إذا أخذنا المعنى الحرفي للعلقة (دودة عالقة)، فإننا نجد أن الجنين يفقد شكله المستدير، ويستطيل حتى يأخذ شكل الدودة"[٨]، ويتغذى من دماء الأم، كما تتغذى الدودة العالقة من

---

[١] وصف التخلق البشري ، مجلة الإعجاز ، العدد الثاني ، ص١٢.
[٢] ن .م ،ص١٤.
[٣] انظر : ن.م ، ن.ص.
[٤] تذكر المجلة أن هذا البحث "ضمن سلسلة أبحاث في علم الأجنة أجرتها الهيئة بالتعاون مع كبار العلماء في مختلف أنحاء العالم "، وتنسب هذا البحث للبرفسور كيث مور أستاذ علم التشريح وبيولوجيا الخلية ، جامعة تور نتو ، كندا. انظر :ن.م،ص١٢.
[٥] ن.م،ص١٤ .
[٦] انظر : لسان العرب ، مادة : علق .
[٧] انظر : ن.م ، ص١٤-١٥.
[٨] ن.م ، ص١٥ .

دماء الكائنات الأخرى. وكما تحاط الدودة بالماء، يحاط الجنين بمائع مخاطي[1]، "ويبين اللفظ القرآني (علقة) هذا المعنى بوضوح طبقاً لمظهر وملامح الجنين في هذه المرحلة"[2]، وأن المظهر الخارجي للجنين يتشابه مع الدم الجامد الغليظ، وهو أحد معاني لفظ (العلقة)؛ لأن مجموعة الأوعية الدموية القلبية وكيس المشيمة والقلب الأولي تظهر في هذه المرحلة، ولا يبدأ الدم المحبوس في الأوعية الدموية بالدوران إلا في نهاية الأسبوع الثالث[3]، "وبهذا يأخذ الجنين مظهر الدم الجامد أو الغليظ مع كونه دماً رطباً"[4].

وهذه الملامح تندرج تحت معاني لفظ (العلقة) من (دم جامد) أو (دم رطب) "أما الفترة الزمنية التي يستغرقها التحول من نطفة إلى علقة فإن الجنين خلال مرحلة الانغراس أو الحرث يتحول من مرحلة النطفة ببطء؛ إذ يستغرق نحو أسبوع منذ بداية الحرث (اليوم السادس) إلى مرحلة العلقة حتى يبدأ في التعلق (اليوم الرابع عشر والخامس عشر)، ويستغرق بدأ نمو الحبل الظهري حوالي عشرة أيام (اليوم السادس عشر) حتى يتخذ الجنين مظهر العلقة"[5]، وقد استخدم القرآن الكريم حرف العطف "ثم" في الدلالة على التحول البطيء من النطفة إلى العلقة[6].

"وهكذا فإن التعبير القرآني (علقة) يعتبر وصفاً متكاملاً دقيقاً عن الطور الأول من المرحلة الثانية لنمو الجنين، ويشتمل على الملامح الأساسية والخارجية والداخلية. ويتسع اسم (علقة) فيشمل وصف الهيئة العامة للجنين كدودة عالقة، كما يشمل الأحداث الداخلية كتكون الدماغ والأوعية المقفلة، كما يدل لفظ العلقة على تعلق الجنين بالمشيمة"[7].

ب- طور المضغة: يتحول الجنين في اليومين (٢٥-٢٦) بشكل سريع جداً، ويستخدم القرآن في وصف ذلك حرف العطف "الفاء" الذي يدل على التتابع السريع.

---

[1] انظر :ن.م،ص١٥.
[2] ن.م،ن.ص.
[3] انظر : ن.م،ص١٦.
[4] ن.م ، ن.ص.
[5] ن.م، ص١٦.
[6] انظر : ن.م ، ص١٦-١٧.
[7] ن.م،ن.ص.

أما المضغة في اللغة فهي متعددة المعاني فتأتي بمعنى (شيء لاكته الأسنان)، وبمعنى صغار الأمور، "ويمكن إدراك تطابق لفظ مضغة بوصف العمليات الجارية في هذا الطور في النقاط التالية"[١]:

١- ظهور الفلقات (الكتل البدنية) في هذا الطور، تجعل الجنين يبدو كأنه مادة ممضوغة عليها طبع الأسنان، وهي تتغير باستمرار مثل "تغير آثار طبع الأسنان في شكل مادة تمضغ حين لوكها"، وذلك للتغيرات السريعة التي تطرأ على شكل الجنين ولكن آثار الطبع تبقى ملازمة[٢]. "وكما أن المادة التي تلوكها الأسنان يحدث بها تغضن وانتفاخات وتثنيات فإن ذلك يحدث للجنين تماماً"[٣].

٢- نتيجة تحولات في مركز ثقل الجنين تتغير أوضاعه مع حدوث أنسجة جديدة، وذلك يشبه تغير وضع المادة وشكلها حينما تلوكها الأسنان.

٣- ظهر الجنين ينحني ويصبح شبه مستدير مثل حرف (C)، وكذلك المادة الممضوغة تستدير قبل بلعها.

٤- في نهاية هذه المرحلة يكون طول الجنين ١سم، وجميع أجهزته تتخلق في صورة برعم، وهذا مطابق لأحد معاني (المضغة) وهو (الشيء الصغير من المادة).

٥- أما ما ذكره بعض المفسرين من أن المضغة (في حجم ما يمكن مضغه) فهو ينطبق على حجم الجنين؛ إذ يكون طوله في نهاية هذا الطور ١سم[٤].

"وإذا تأمل الإنسان الأطوار السابقة يجد أن مراحلها قصيرة جداً، ولا يمكن الحصول على الأجنة خلالها إلا بوسائل علمية دقيقة كان من المستحيل تيسرها في وقت نزول القرآن الكريم، وما كان يخرج منها [في] حالات الإجهاض على هيئة سقط مبكر يخرج في كمية الدماء، وقد تمزق إلى أجزاء دقيقة لا تعطي مظهراً يمكن دراسته، فضلاً عن أن تلك الأجيال لم يكن في إمكانها أن تعلم

[١] ن.م ، ص١٧.
[٢] انظر : ن.م ، ن.ص .
[٣] ن.م ، ص١٧ .
[٤] انظر : ن.م ، ص١٧-١٨ .

أن هذه الدماء تحمل سقطاً من جنين ... وهكذا تعتبر هذه الأوصاف القرآنية دلالات واضحة على أن هذه الحقائق العلمية جاءت للرسول محمد صلى الله عليه وسلم من الله سبحانه وتعالى"[1].

يبدو لي أن في تفسير العلقة بما سبق عدة ملاحظات أهمها:

١- إن أصل معنى العلق في اللغة ينصرف إلى الدم الغليظ أو الشديد الحمرة[2]، ومنه قيل "لهذه الدابة التي تكون في الماء علقة لأنها حمراء كالدم"[3]، ونتساءل هنا هل في استخدام القرآن لفظ العلقة للدلالة على لونها أم لصفات أخرى؟ يمكن أن تكون الإجابة في الملاحظة الثانية.

٢- إن كيث مور في كتابه (التطور عند الإنسان مع نظرة سريرية جنينية) يذكر أنه إذا تم الإجهاض في مرحلة العلقة عفوياً فإنه يشبه العلقة الدموية، أي بمعنى الخثرة الدموية، وهو المعنى الذي أعطي من قبل الناس القدماء لهذا الطور من خلال المظهر الخارجي للجنين المجهض[4]. هذا الذي يؤكد خلاف ما ذكرته مجلة الإعجاز سابقاً من أنهم لم يدركوا في العصور السابقة أن المرأة في هذا الطور هي حامل.

٢- دقة التعبير القرآني وتعليل للظاهرة أم أسبقية:

تنطلق هند شلبي في بحثها عن دور الجبال في طبيعة الأرض من القرآن الكريم، دون الاعتماد في هذا على فهم المفسرين السابقين، لأنها لا تعدو أن تكون سوى اجتهادات، لتقارن ذلك مع ما يقوله العلم عن دور الجبال في طبيعة الأرض[5].

أما عن دور الجبال في طبيعة الأرض في القرآن، فقد عبر القرآن عن الجبال بألفاظ عدة هي الجبل – الجبال – الرواسي – الطود – الأعلام – وكذلك وصفها بالشامخات وشبهها بالأوتاد.

إن التعبير القرآني عن الجبال بالرواسي كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الرعد: ٣] وقوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [الغاشية: ٣٢] يدل على أن هناك

---

[1] ن.م ، ص١٩

[2] انظر : -تاج العروس ، مادة : علق . — الصحاح ، مادة : علق .

[3] لسان العرب ، مادة : علق .

[4] انظر : KEITHL. MOORE, THE DEVELOPING HUMAN , WITH ISLAMIC ADDITIONS , ABDUL-MAJEED A.AZZINDANI , SAUNDERS COMPANY, THIRD EDITION ,CANADA , 1983, p.12F- P. 56A.

[5] انظر : التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق ، م.س ، ص١٠٩-١١٠ .

جذوراً عميقة للجبال ذاهبة في الأرض قدر ارتفاعها عن سطح الأرض[١]؛ لأن مادة رسا تفيد[٢] "معنى الثبوت والرسوخ في الأرض[٣]، ولا يتم ذلك إلا إذا ذهب أصل الشيء بعيداً فيها"[٤].

وإن في وصف القرآن للجبال بالشموخ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧] أي العاليات، وتعبيره عن كيفية إقامتها ورفعها على سطح الأرض بفعل نصب ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-١٩].

ولَفت القرآن النظر إلى الاعتبار بطول الجبال لإبراز ضعف الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

كل ذلك يدل على أن المقصود من الجبال هي الضخمة منها، وبين القرآن أن وظيفة الجبال الطبيعية أنها تمنع ميدان الأرض، وقد تكرر ذلك في عدة آيات هي[٥]:

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]. ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]. ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[٦] [لقمان: ١٠].

"والمعنى اللغوي لفعل ماد: التحرك والميلان. وهو المعنى الذي استقر عليه المفسرون"[٧].

وقد أدرك الصحابة الصلة بين الجبال وسكون الأرض فقال علي بن أبي طالب ﷺ: "لما خلق الله الأرض قمصت ومالت وقالت: أي ربّ! أتجعل عليّ من يعمل بالمعاصي والخطايا، ويلقي علي الجيف والنتن! فأرسى الله تعالى فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون"[٨].

ثم تبين هند شلبي دور الجبال في طبيعة الأرض من الناحية العملية، فتذكر أن القشرة تتكون من طبقتين: الأولى السيال، والثانية السيما ،أما الطبقة الأولى هي أخف من الثانية،

---

[١] قوله تعالى : ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ : ٧] دال على ذلك . الوتد : ما رُزَّ في الحائط أو الأرض من الخشب ، لسان العرب ، مادة : وتد .

[٢] انظر : ن.م ، ص١١١-١١٢ .

[٣] لسان العرب ، مادة : رسا .

[٤] ن.م ، ص١١٢ .

[٥] انظر : ن.م ، ص١١٢-١١٥ .

[٦] ذهب دروزة إلى أن أسلوب الآيات التي احتوت التنويه بآيات الله في خلق السماوات والأرض والجبال والنبات والحيوان متصل بما هو مستقر في أفهام الناس وماثل لأبصارهم بصورة عامة ، دون قصد إلى تقريرات فنية لأن ذلك خارج عن الهدف القرآني . انظر : التفسير الحديث ، م.س ، ج٥/٨-٩ .

[٧] ن.م ، ص١١٥ .

[٨] محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، دار إحياء التراث العربي ، د.ط ،بيروت ، ١٩٦٦مـ ، ج١٠/٩٠ .

ومنها تتكون القارات والمرتفعات، وأما الطبقة الثانية فهي تحت المحيطات، وباعتبار أن الجاذبية تحت المحيطات أقوى من التي على القارات، أدى ذلك إلى حدوث خلل في التوازن بين جاذبية الطبقتين، بسبب أن كثافة الكتل تحت المحيطات أشد من كثافة الكتل فوق القارات، وحتى تظهر حالة التوازن وجدت الجبال على سطح الأرض، وكذلك وجدت الجبال من أجل عوامل أخرى تسبب عدم التوازن على القشرة الأرضية كالتعرية والترسب... فوجدت الجبال من أجل تثبيت القشرة الأرضية[١]، وبعد هذا تقول: "وهكذا تبينا في هذه المسألة أيضاً مدى دقة عبارة القرآن حول دور الجبال في تثبيت الأرض انطلاقاً من تخير اللفظ المؤدي للمعنى، ذلك المعنى الذي لم يتم إدراكه على حقيقته إلا بعد أن قطع الفكر البشري المراحل الضرورية التي جعلته قادراً على الوقوف بنفسه على مراده"[٢].

يبدو أن تصور دور للجبال في تثبيت الأرض كان موجوداً في العصور السابقة ويظهر ذلك في الرواية السابقة عن علي ﷺ وفي رواية عن الحسن قال: "لما خلقت الأرض كانت تميد، فقالوا ما هذه بمقرة على ظهرها من أحد، فأصبحوا وقد خلقت الجبال، فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال"[٣].

ولكن الذي اختلف في العصر الحديث هو أن هناك تفسيراً علمياً لهذه الظاهرة، بينما كانت تعليلاتهم في العصور السابقة مرتبطة بأمور غيبية.

وقد تبين في هذا العصر – كما ذكرت هند شلبي – دقة عبارة القرآن حول هذه المسألة. علماً أن القرآن لم يذكر التعليل العلمي لها، وإنما اقتصر على بيان هذا الدور الذي أثبته العلم ولم يناقضه، فضلاً عن أن القرآن لم يذكر التعليلات التي كانت سائدة والتي ذكرت في الروايات السابقة، فهذا وذاك هما الدالان على السبق القرآني.

٣- التوفيق بين دلالة اللفظ وبين ما يقول به العلم:

ترى هند شلبي في قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] إشارة إلى حركة الأرض وكرويتها، وتنطلق لبيان ذلك من تحليل لغوي لفعل دحا[٤]، "فدحا يدحو دحواً إذا

[١] انظر : ن.م ، ص١١٧-١٢٠ .
[٢] ن.م ، ص١٢٠ .
[٣] تفسير القرآن العظيم ، م.س ، ج٧٣٦/٢ .
[٤] انظر : التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق ، م.س ، ص٩٥ . وفسر دروزة الدحي بمعنى البسط . انظر : التفسير الحديث ، م.س ، ج٢٧٤/٦ .

دحا به على وجه الأرض" يعني رمى به إضافة إلى معنى البسط. "دحا المطر عن وجه الأرض دحواً نزعه". "دحا البطن عظم واسترسل إلى أسفل". ومن اشتقاقات هذا الفعل: "الأدحِيّ: الموضع الذي يبيض فيه النعام. الأدحية: الحفرة. المداحي: وهي أحجار أمثال القرصة. كانوا يحفرون حفرة ويدحون فيها بتلك الأحجار، واشتق لهذه اللعبة اسم فسميت المدحاة ".

واشتق منه أيضاً فعل تدحّى فيقال: "تدحّت الإبل إذا تفحصت في مباركها السهلة حتى تدع فيها قراميص[1] أمثال الجفار"[2].

ثم تستنتج من هذه الاستعمالات المختلفة لمادة الدحو معنيين هما:

١- الحركة في قولهم: دحى به يعني رمى به.

٢- "الشكل الذي فيه استدارة، وهو ما يدرك من دحو المطر للحجارة، وفي الحجارة استدارة، وكذلك من تدحي الإبل، ويلتحق به أُدْحِيّ النعامة والحفرة، ويتأكد بالمداحي وهي كما رأينا حجارة فيها استدارة، وأخيراً بدحو البطن"[3].

أما صورة المطر وهي تدحو الحجارة، وصورة لعبة المداحي، فجامعتان للمعنيين، الحركة إلى جانب الشكل[4].

وهذان المعنيان دل عليهما قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات:٣٠]؛ إذ يفهم منها: ١- "تكوير الأرض. ٢- دفعها في حركة تشبه حركة الحجر الذي يرمي به السيل ويقلبه على نفسه كلما دفع به إلى الأمام"[5].

وهذا تشخيص دقيق لما هي عليه الأرض في الواقع، من دورانها الدائب حول نفسها، وحول الشمس، وهذا ما أثبته علم الفلك اليوم بآلاته الدقيقة[6].

يظهر لي أن أصل دلالة لفظ "دحا" في كلام العرب هو البسط والمد، فمنه قول أمّية ابن أبي الصلت:

---

[1] القراميص ج قرموص وهو إما الحفرة أو وكر الطائر ، انظر : لسان العرب ، مادة : قرمص . الجفار ج حفر وهو ما عظم واستكرش من أولاد الشاء . انظر : ن.م ، مادة : جفر .

[2] ن.م،ص٩٦-٩٧.

[3] ن.م ، ص٩٧.

[4] انظر : ن.م ، ص٩٧.

[5] ن.م ، ص٩٨.

[6] انظر : ن.م ، ن. ص.

دار دحاها ثم أعمرَنَا بها   وأقام بالأخرى التي هي أمْحَدُ[١]

فدحا يدحو: "بسط ووسع"[٢]، أما الأدحيّ والإدحيّ والأدحية فهو "مبيض النعام" في الرمل؛ لأن "النعامة تدحو برجلها ثم تبيض فيه، وليس للنعامة عش"، وكان ابن منظور قد بين أن الدحو هو البسط والوسع، فيكون معنى قوله: "تدحو برجلها" أي تبسط وتوسع، فالمقصود من هذا الاستعمال هو أنها تبسط وتوسع المكان الذي ستضع البيض فيه، وليس لأن ما تقوم به فيه شكل استدارة. أما استعمال لفظ المداحي تعبيراً عن الحجارة، فهل هذا الاستعمال لأن في الحجارة استدارة أم لأمرٍ آخر؟ يقول ابن منظور: إن المداحي "أحجار أمثال القِرَصَة"[٣]، "والقرص: من الخبز وما أشبهه، ويقال للمرأة قرّصي العجين أي سويِّه قِرَصة، وقرص العجين: قطعه ليبسطه قرْصة قرصة" وتسمى عين الشمس قرْصة عند غيبوبتها. "والقّرص: عين الشمس على التشبيه، وقد تسمّى به عامة الشمس"[٤].

فاستعمال لفظ "القرصة" في الأصل لمعنى البسط فيها، واستعمل هذا اللفظ للتعبير عن المداحي أي الحجارة لنفس المعنى، فيكون استعمال لفظ المداحي للتعبير عن الحجارة المستديرة لمعنى البسط؛ لأنها منبسطة أو لأنه برميها تدحو الأرض. هذا الذي يؤيده معنى المدحاة، "والمدحاة :خشبة يدحَى بها الصبي فتمر على وجه الأرض لا تأتي على شيء إلا اجتحفته"[٥].

ومن معاني الدحو الرمي والنزع، يقول أوس بن حجر في نعت غيث: "ينفي الحصى عن جديد الأرض أجشٌ مبتركٌ كأنه فاحص أو لاعبٌ داحي".

"يدحو بالحجر بيده أي يرمي به ويدفعه" "دحا المطر الحصا عن وجه الأرض دحواً نزعه"[٦]، مع ملاحظة أن الحصا لا يشترط فيه أن يكون مستديراً، هذا الذي يدل على أن المرميّ بلفظ "دحا" لايشترط أن يكون مستديراً فيقال دحا الفرس دحواً: رمى بيديه رمياً لا يرفع سنبكه[٧] عن الأرض كثيراً، ونام فلان فتدحى أي اضطجع في سعة من الأرض[١].

---

[١] جامع البيان ، م.س ، ج١٢/٤٣٨.

[٢] لسان العرب ، مادة : دحا .

[٣] لسان العرب ، مادة :دحا.

[٤] لسان العرب ، مادة: قرص .

[٥] لسان العرب ، مادة :دحا.

[٦] لسان العرب ، مادة : دحا .

[٧] السُّنبك : طرف الحافر وجانباه من قَدُم ، لسان العرب ، مادة :سنبك.

إذاً لا يشترط فيما يستخدم له لفظ الدحو أن يكون مستديراً، وأيضاً لا مانع من أن يستخدم له، ولكن من الذي سيحدد لنا أن الشيء الذي استخدم له لفظ الدحو هو بشكل مستدير؟.

إذا رجعنا إلى لاحق الآية وهي قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات:٣١] يدل على أنه يفسر الدحو في الآية السابقة لها: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا[2]﴾ [النازعات:٣٠].

هذا الذي يثير التساؤل التالي وهو: ما الصلة بين دحو الأرض وإخراج الماء والمرعى منها؟.

فإذا اعتبرنا أن معنى دحو الأرض هو البسط، فهل هناك تفسير علمي يبين لنا هذه الصلة؟ وإذا اعتبرنا أن دحو الأرض هو حركتها وشكلها فما وجه الصلة- علمياً - بين ذلك وبين إخراج الماء والمرعى من الأرض؟.

إنما أردت أن أقول إن التفسير العلمي لبعض الآيات سيكون منعكساً على تفسير الآيات الأخرى، هذه الذي سيتطلب المزيد من التفاسير العلمية والبحث في كل ذلك عما يقول به العلم.

نخلص إلى أن ما سماه المفسر العلمي سبقاً للقرآن الكريم في ذكر العلوم الحديثة – عدا ما هو متكلف به – يرجع إلى أمرين هما:

الأول: وصف المفسر الظاهرة التي ذكرها القرآن الكريم على ضوء ما كشف عنه العلم الحديث، والذي ساعده على ذلك دقة الوصف القرآني لهذه الظاهرة التي كانت معروفة في عصر النزول، بالإضافة إلى عدم ذكر القرآن للتعليلات التي كانت سائدة في ذلك العصر.

الثاني: يرجع هذا السبق إلى احتمال اللفظ لإحدى الدلالات التي اختارها المفسر لتوافق ما يقول به العلم، ولكن هذه الدلالة رغم احتمالية اللفظ لها فإن السؤال المطروح هو: هل هذه الدلالة التي اختيرت كانت مستخدمة في عصر نزول القرآن أم أنها باصطلاح حادث؟ هذا

---

[1] لسان العرب ، مادة : دحا . ألا يمكن القول إن الأصل في الدحو هو البسط والوسع ، ثم استخدم في ما يمكن أن يبسط الأرض ، ثم في رمي الشيء المنبسط ، ثم استعير للشكل الذي فيه استدارة لانبساطه ، أو لأنه برميه يدحو الأرض كما تدحو النعامة برجلها موضع البيض ؟ هذا الذي يثير التساؤل التالي :هل نستطيع أن نحدد التطور الدلالي لكلمة ما عبر العصور ؟وهل يجوز لنا أن نفسر القرآن بدلالات حادثة لم تكن مستعملة في زمن نزوله ؟.

[2] انظر : تفسير النسفي ، م.س،ج٤/٣٣١.

بالإضافة إلى أن ما يسميه المفسر العلمي سبقاً قرآنياً لا يعد سبقاً بالنسبة لنا، لأن هذه الدلالة لم تفهم إلا بعد كشف العلم لها، ولا يصح أن يقال إنما سبق قرآني لأهل عصر نزول الوحي لأنهم ما كانوا فاهمين منه هذه العلوم[1]، فالسؤال هو: هذا السبق بالنسبة لمن؟. كما أنه لايمكن عد ذلك من قبيل الإخبار بالغيب لأن الآيات الواردة في ذلك واضحة الدلالة، أدرك بعض الصحابة معناها قبل وقوع ما أخبرت به[2].

خاتمــــة:

من خلال ما سبق يظهر أن المفسر العلمي استند في تفسيره على عدة ركائز أساسية أسهمت في وجود هذا النوع من التفسير، يمكن حصرها في ثلاثة أمور هي: استشهاد القرآن بأمور واقعية خاضعة للحس، وطبيعة اللغة، وثقافة العصر، فهل يمكن لهذه الأمور أن تكون دالة على العلوم الحديثة في هذا العصر دون أي إشكاليات؟

القرآن الكريم ذكر هذه النواميس لمقاصد كبرى وربطها بخالقها، فوجد المفسر العلمي في هذا صلة بين الماضي والحاضر، ووسيلة للتوفيق بين ما ذكره القرآن وبين ما هو مجال العلوم الحديثة اليوم.

فمثلاً استطاع المفسر العلمي أن يسهب علمياً خدمة لمقصد الآية، وذلك بأن يذكر التعليل العلمي للظاهرة التي ذكرها، أو أن يستدل بالآية على أسبقية القرآن في ذكره لهذه

---

[1] فضلا عن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخبرهم بما هو أغرب بالنسبة لهم كحادثة الإسراء والمعراج والغيبيات فيؤمنون بها، فلو أراد أن يخبرهم بما سيكتشف من العلوم لآمنوا بذلك و لم ينكروها.

[2] ولكن كيف فهم المؤيدون الإعجاز العلمي على ضوء التحدي القرآني ؟

تنوعت طرق تكييف الإعجاز العلمي مع الإعجاز القرآني ليكون وجهاً من وجوه إعجازه . بينت هند شلبي أن مفهوم الإعجاز يتجلى بالأسبقية الزمنية في تصوير حقائق الأشياء ، فالأسبقية الزمنية هي سر الإعجاز العلمي للقرآن ، والذي يتمثل بملاحظة "ما احتوى عليه هذا النص من معان يتعذر صدورها عن بشر زمن نزول القرآن لأنها تكشف عن واقع لم تكن العقول البشرية قد نضجت لتقف عليه ، وعدم وقوف معاصري القرآن على ذلك هو الذي يدل على جانب الإعجاز فيه ، وبهذا يفهم سر التحدي للإنس والجن بأن يأتوا بمثله ، "إذ أنهم كلما تقدموا خطوة إلا وكان القرآن متضمناً لها داعياً إلى تجاوزها إلى غيرها" . انظر : التفسير العلمي للقرآن بين النظريات والتطبيق ، م.س ، ص١٤٩ ، ص١٥٩ ،ص١٦٠ .

أما ابن عاشور فيبحث عن أدلة يمكن أن يستدل بها على أن الإعجاز العلمي وجه من وجوه الإعجاز القرآني ، فلا يجد إلا إشارات استدل بها عليه، وهذا الإعجاز يثبت للقرآن بمجموعه ؛ إذ ليست كل آية مشتملة عليه ، فهو إعجاز حاصل من مجموع القرآن ، لم يتحد به إلا إشارة في نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] أما وجه الإعجاز فيه للعرب ، فلا قبل لهم بتلك العلوم ، كما قال تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ [هود : ٤٩] . انظر : التحرير والتنوير ، م.س ، ج١/١٢٧-١٢٩ .

العلوم، وهذا ارتكز على ذكر القرآن للظاهرة نفسها وعلى طبيعة اللغة، ولكن ألا ينبغي أن نتساءل لماذا خص القرآن ذكر هذه الظواهر دون غيرها؟ هل لارتباطها بعصر نزول القرآن أم لأنها ضرورية وأساسية لحياة الإنسان؟ لا شك أن الأمر الثاني هو المراد[١].

أما عن دوراللغة وثقافة العصر فقد حرص المفسر العلمي على أن يجعل القرآن الكريم مميزاً عن غيره من كلام البشر بإثباته سبقاً علمياً له من خلال استدلاله بالآية، لكن أفلا يمكن أن نستنبط ذلك من أي نص آخر؟. ينقل ابن القيم [ت٧٥١م] عمن رفض القول بأن القرآن معجز بما يحويه من العلوم التي لم يسبق إليها أحد من البشر قبل نزول القرآن، بأنه قد وجد في السنة وفي كلام العرب مثل هذا و لم يعد معجزة[٢].

يستشف من هذا أن حمل العلوم على بعض النصوص ممكن ولكن ما هو السبب في ذلك؟.

إن المتأمل في أدوات المفسر العلمي المستدل بها يجد أن أهمها يرتكز على طبيعة اللغة، وأكتفي هنا ببيان دور دلالات الألفاظ[٣] التي تتفرع إلى دلالات مختلفة بحسب الزاوية التي ينظر منها.

فللفظ في اللغة العربية دلالات متنوعة تبدأ بالدلالة الوضعية مروراً بدلالة منطوقه ودرجة شموله إلى مجازه.

لقد وجد المفسر العلمي في دلالات الألفاظ مجالًا رحباً لتفسيره العلمي، فدلالة اللفظ على الشمول سواء المطلق منه أو العام سمح له بأن يجعل ما يكشف عنه العلم الحديث داخلاً في هذا الشمول، بل إن دلالة اللفظ على العموم أو الإطلاق هي الدالة على ما كشف عنه العلم الحديث، وقل مثل ذلك في دلالة المنطوق بما فيها من دلالة الالتزام أو المطابقة أو التضمين أو الإشارة ... وأيضاً المجاز.

إن اللفظ الذي كان يدل على أشياء معينة في الماضي كشف العلم الحديث عن حقائق هذه الأشياء فصار اللفظ يحمل ذيولاً من المعاني تدل على هذه الحقائق المكتشفة.

---

[١] حتى ولو حاول الإنسان العيش على سطح المريخ فإنه لا بد له من إيجاد مقومات الحياة عليه ، منها مثلاً محاولة زراعة النباتات في الفضاء ، فهذا لن يتم له إلا بتوفير مقومات الحياة الأساسية لها .انظر : سعد شعبان ، الطريق إلى المريخ ، مجلة عالم المعرفة ، عدد ٢٢٨ ، الكويت ، شعبان ١٤١٨هـ ، ديسمبر ١٩٩٧ مـ ، ص٢٦٥ .

[٢] انظر ابن القيم الجوزية ، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ، دار الكتب العلمية ، د.ط ، بيروت ، د.ت .ص٢٤٩ .

[٣] يقسم علماء اللغة الدلالة إلى قسمين :دلالة مركزية ودلالة هامشية ، المركزية هي التي فيها قدر مشترك من الفهم بين أغلب الناس ، أما الهامشية فهي التي تختلف باختلاف الناس وتجاربهم .انظر : إبراهيم أنيس ، دلالة الألفاظ ، الأنجلو المصرية ، د.ط، القاهرة ، ١٩٥٨م .ص١٠٣.

التساؤل الذي يرد هنا إذا كان الإنسان هو الذي يولد دلالات جديدة للألفاظ فهل يصح أن نحمل هذه الدلالات التي هي من وضع إنساني للقرآن الكريم الذي هو كلام إلهي؟ وخاصة إذا كنا نجهل التطور الدلالي لكل لفظ من الألفاظ، ألا ينبغي أن نفهم دلالات ألفاظه على نحو فهم العرب في عصر نزول القرآن؟.

إني لا أقصد من هذا الكلام أن يكون فهمنا للقرآن الكريم منغلقا، ففهمنا لدلالات ألفاظه على حسب ما فهمت عليه في عصر نزول القرآن لا يمنع استمرار مواكبته لكل عصر ومكان، وإنما قد يكون ذلك حداً مانعاً من أن يصبح القرآن الكريم مادة هلامية يشكلها قارئه كما يريد.

كذلك لا يمكن فصل دور اللغة عن ثقافة العصر عند المفسر العلمي فثقافة العصر لدى المفسر هي التي سوغت اختيار أحد الدلالات للفظ دون غيرها، وهي التي سوغت حمل اللفظ على المجاز..

فالمفسر العلمي في تعامله مع النص القرآني إما أن يكون منطلقاً من النص محاولاً جذبه إلى علوم العصر، وهو في هذا حريص على الاستدلال به وعلى أن يكون المعنى الجديد منسجما مع السياق والسباق وتميز بذلك المفسرون المختصون بالعلوم الشرعية.

وإما أن يكون منطلقاً من ثقافة العصر محاولاً إسقاطها على النص القرآني وهو في استدلاله غير متكامل فإن استدل باللفظ لم ينظر إلى السياق ... هذه الطريقة ظهرت في الغالب عند غير المختصين بالعلوم الشرعية كالأطباء وعلماء الجيولوجيا ....، وجل هذه التفاسير يمكن اعتبارها انطباعات شخصية أكثر من كونها تفسيراً.

لعل وجود هذا النوع من التفاسير يعود إلى أمرين اثنين هما الأول أن تفسير القرآن أصبح كالكلأ المباح يرتاده من يريد مع العلم أن ما يفتخر به عصرنا هو أن العلوم أصبحت أكثر دقة بوجود المختصين بكل فرع منها.

الثاني عدم وجود مرجعية علمية في العالم العربي والإسلامي تكون مرجعاً لغير المختصين في تفسيرهم للقرآن.

إن القول بالسبق القرآني في ذكر العلوم قبل اكتشافها حسب ما قدمته من تطبيقات يعتبر مستنداً ومسوغاً للقراءات المعاصرة التي تسعى إلى جعل النص القرآني مادة هلامية يشكلها قارئه كما يريد، لاشتراكهم مع من يقول بمقولة السبق بتجاوز معهود المخاطبين في عصر التنزيل في استعمالاتهم اللغوية والبلاغية التي تعتبر شرطاً أساسياً في التفسير؛ لذا علينا أن نكون موضوعيين

أولاً ومنسجمين مع أنفسنا ثانياً، وفاءً لقدسية القرآن الكريم ، وإبرازاً لفاعليته البعيدة عن القراءة الإسقاطية، مما يعكس المبادئ والقيم والمقاصد التي جاء بها ولأجلها، دون أن نلجأ إلى مثل هذه القراءات التي كان من أبرز أسباب وجودها ردة الفعل تجاه التقدم العلمي في الغرب.

إذا كان التفسير العلمي لا يعدو أن يكون توظيفاً للنص القرآني في أفكار مسبقة فأين فاعليته؟. لا يمكن جعل جميع صور التفسير العلمي ضمن إطار الانفعالية (طغيان الثقافة على النص).

لقد تنوعت صور التفسير العلمي، لهذا يمكن القول إنها ليست على درجة واحدة. فقد كان في بعض هذه الصور تحميل للنصوص ما لا تحتمل وإسقاط للعلوم والمعارف على النص القرآني دون أن يكون في الآيات دلالة على ذلك، هذا الذي قد يرجع إلى ما يلي:

١- انطلاق المفسر من ثقافة عصره التي حمّلته المعاني الجاهزة بشكل حجب عنه معطيات النص.

٢- عدم الالتفات إلى مقصد الآية .

٣- فصل الآية واللفظ عن سياقه وسباقه ولحاقه .

ومن صور التفسير العلمي الإسهاب العلمي خدمة لمقصد الآية، ولكن دون أن تدل على ما فيه من دقائق العلوم، وإنما نقطة الاشتراك بين العلم والآية هي أصل الموضوع. مثال ذلك: أن تذكر الآية ظاهرة المطر من أجل الاستدلال على وحدانية الله عز وجل، فيفصل المفسر العلمي في بيان أسباب هذه الظاهرة التي كشف عنها العلم الحديث، وذلك خدمة للمقصد السابق الذكر.

وتدخل في هذا الإطار أغلب التفاسير العلمية، حتى التي وسمت بأنها تدل على سبق قرآني، في حين هي إسهاب علمي يفسر أو يعلل علمياً الظاهرة التي ذكرتها الآية.

أما الاستدلال بالآية على سبق قرآني فقد استطاع بعض المفسرين الاستدلال بالآية على هذا السبق، ولكن معظم هذه التفاسير اتصفت بالتكلف والحرص على إثباته بأي طريقة، وقد ذكرنا سابقاً أن ذلك صادف إشكالات مختلفة، منها أنها لم تتجاوز كونها دفاعية في أغلب صور التفسير العلمي فكيف يمكن للتفسير العلمي أن يكون دافعاً ومحركاً؟.

يمكن أن نجعل من التفسير العلمي محركاً ودافعاً – من وجهة نظري – إذا انطلقنا من حديث القرآن الكريم عن العالم المادي المتصل بالواقع المحسوس، وخاصة أن ما يذكره القرآن

عن هذا الواقع يمس النظام الكوني، ويظهر ذلك في الظواهر الكونية التي يعرضها القرآن الكريم، هذه الظواهر هي أحد أسباب استمرار حياة الإنسان في كل عصر.

ومن ثم يحاول المفسر الكشف عن معطيات النص القرآني ضمن الشروط الآتية:

١- محاولة فهم المقصد القرآني من الاستدلال بالواقع المحسوس أولاً، هذا الذي يقتضي معرفة حال العرب ومدى اعتبارهم لهذه الأدلة، وما الذي أحدثه القرآن من تطور في هذا؟ أما ثانياً ففهم مقصد الآية من هذا الاستدلال، فمثلاً قد يكون من أجل أمور عقدية كما أشرنا خلال هذا البحث.

٢- فهم دلالات الألفاظ كما كانت عليه في عصر نزول القرآن.

٣- التفسير الموضوعي للآيات وذلك بجمع الآيات المتصلة بموضوع من المواضيع ومن ثم تفسيرها.

إن هذه الشروط لا تهمل معطيات النص القرآني ولا تجعل منه مادة هلامية يشكلها قارئه كما يريد. وفي الوقت نفسه لا تقطع بين القرآن وهذا العصر؛ لأن الموضوع القرآني هو صلة الوصل بين الماضي والحاضر، فبعد أن يُفهم القرآن الكريم ضمن معطياته يُقارن هذا الفهم مع نتائج العلم التجريبي، وعلى المفسر أن لا يجزع إذا لم يجد اتفاقاً لأن عدم الاتفاق لا يدل على التناقض، فقد يصف القرآن ظاهرة ما كما يراها الإنسان بعينه في كل زمان ومكان، ويأتي العلم بأدواته ليكشف عن أسبابها وأسرارها، هذا أولاً.

أما ثانياً فيستفيد المفسر من نتائج العلم التجريبي في تحقيق المقصد القرآني من الاستدلال بالواقع، وفي تحقيق مقصد الآية من هذا الاستدلال. وليس في هذا إهمال لحركية وفعالية القرآن الكريم لأن المنطلق سيكون من معطياته.

على ضوء ذلك نجد أن التفسيرالعلمي جنس تنضوي تحته أنواع عديدة، المقبول منها: التفصيل بنتائج العلوم خدمة لمقصد الآية، والتعليل العلمي لبعض الظواهر الكونية المذكورة في القرآن الكريم عوضا عن ما احتوته التفاسير من الإسرائيليات والروايات الموضوعة، وإثبات عدم معارضة القرآن للعلم التجريبي من جهتين:

الأولى: عدم معارضة العلم للآيات القرآنية المدركة المعنى في عصر التنزيل، كنقض البيان الإلهي للخرافات والأوهام التي كانت سائدة في عصر التنزيل كما في موقفهم من الحائض، وعدم إتيان الزوجة من دبرها في قبلها لأن الولد يأتي أحول، أو نفي ادعاء احتواء جوف الإنسان لقلبين، قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب:٤] ستبقى

هذه الآية متحدية الإنسان على مدى العصور، ودالة على المعنى الذي فهمه أهل عصر التنزيل، دون القول بأنهم لم يدركوا هذا المعنى.

الثانية: عدم ذكر القرآن الكريم للخرافات والأوهام السائدة في عصر التنزيل، والتي أثبت العلم في العصر الحديث بطلانها، فلو أنه من عند بشر لتأثر بالبيئة وذكرها.

هذه بعض الأنواع، ويمكن إضافة أنواع أخرى، ولكن بشرطين أساسين:

الأول: أن تكون محققة لمقاصد القرآن الكريم ومقصد الآية المراد تفسيرها.

الثاني: أن لايكون فيها تحميل للآيات ما لاتحتمل وأن لايكون السبب في تأويل الآية موافقة العلوم المكتشفة حديثا.

والحمد لله رب العالمين.